

مجلة
كلية اللغة العربية
بدمنهور

يصدرها أعضاء
هيئة التدريس بالكلية
تحت إشراف

الدكتور عبد الله ربيع محمود
عميد الكلية

العدد الأول
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر القاهرة



مجلة
كلية اللغة العربية
بدمنهور

يصدرها أعضاء
هيئة التدريس بالكلية
تحت إشراف
الدكتور عبد الله ربيع محمود
عميد الكلية

العدد الأول
١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وإمام المتقين. سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد:

فقد شاء الله أن تكون للإسلام منارة، وللعربية دارة في مدينة دمنهور، فافتتحت بها كلية اللغة العربية. معهداً للعلم، ومركزاً للدرس، وحصناً للغة، ومصنعاً لتخريج العلماء والدعاة.

وتطلعت هذه الكلية الناشئة إلى ما يتطلع إليه كل فتى ناضج، وكل واع ثاقب، ورغبت أن يكون لها صوت ناطق بالحق، ولسان شاهد بالصدق، فكان التفكير الفينة بعد الفينة، والمرة تلو المرة في إصدار مجلة أو حولية تضم بعض نتاج أبناء هذا المعهد الجديد، وتعطي الفرصة لأقلام هذا الجيل المترقب لتشرك الكلمة المكتوبة أختها المنطوقة، في خدمة الإسلام والعربية، وتحول هذا التفكير إلى أمل، وحالت ظروف الإنشاء والإعداد دون تحققه بالسرعة المرجوة، لكن السعي إليه لم يتوقف، والإعداد لبلوغه لم يهدأ، حتى كانت وثبة فتية وضعت الجميع على أولى الدرجات، ودفعتهم إلى مواصلة الصعود، فكان هذا العدد الأول من صوت العربية بشمال مصر من مجلة كلية اللغة العربية بدمنهور، يتقدم إلى قارئه في تواضع، ويقترب منه في هدوء وائتناس، يريد صداقته ويطلب نصحه، ويرجو معونته، ويعاهده أن يكون ما بعده خيراً مما قبله، وأن يحمل رسالة العلم، تفتح الطريق، وتنير السبيل، وتوضح المنهج، وترفع

الأعلام والصوى لمن يريد السعادة به . واللذة الكبرى باكتسابه .

ومما لا يشك فيه أن أحدا لن يلوم على صغر الحجم أو قلة المادة ، أو عدم التنوع ، فإنها الباكورة تخرجها أيد هى أيضا قليلة، وتبرزها جماعة ماتزال فى دور البناء والتكوين ، وتظهرها مدرسة علمية هى على أول الطريق ، ولك ـ أيها القارىء ـ علينا العهد والميثاق أن نعوض مافقدت ، وأن نحقق ماأردت بمعونة الله ، وحسن توفيقه فيما يستقبل من أعداد هذه المجلة الجديدة ، فادع الله معنا (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) ؟

المشرف

د . عبد الله ربيع محمود

أبو عبيد القاسم بن سلام

ثقافته العلمية وآثاره

بقلم

دكتور

عبد الله ربيع محمود

أبو عبيد ، هو الإمام القاسم بن سلام ، الفقيه ، اللغوى . المحدث ، إمام عصره فى كل فن وعلم كما يقول صاحب معجم الأدباء (١)

وقد كناه بعضهم بأبى عبيد الله(٢) ، وذكر صاحب طبقات المفسرين أن (سلاما) الذى هو اسم أبيه ينطق بتشديد اللام(٣) .

ويوضح صاحب الفهرست شيئا من نسبه فيقول (أبو عبيد القاسم ابن سلام ، وقيل : ابن سلام بن زيد(٤) ..

ولم أر فيما أطلعت عليه فيما يتصل بنسبه أكثر من هذا ، غير أنهم ذكروا أن أباه كان عبدا روميا لرجل من أهل هراة ، وأنه كان يتولى الأزد . .

ومن هنا جاءت نسبة : التركى ، والأزدى ، وربما الهروى التى ترد فى ترجمته .

ولأبى عبيد نسب أخرى مثل . الخزاعى ، والخراسانى والبغدادى ، والكوفى . .

وعلتها واضحة كما نرى لكن الذى نعجب له أن بعضهم قد نسبه إلى (جمح) فوصفه بالجمحى ، وظن أنه كان أخا لمحمد بن سلام الجمحى صاحب طبقات فحول الشعراء المتوفى سنة ٢٣١ هـ

---

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٢٥٤
(٢) انظر . هامش ص ٥ تذكرة الحفاظ / ٢
(٣) طبقات المفسرين / ١٩٩ (ب)
(٤) الفهرست / ١١٢

وهذا خطأ فاحش ، وقد تنبه إليه من قديم أبو الطيب اللغوى[١] وحذر منه ، لكن ذلك لم يمنع كثيرين من الوقوع فى هذا الخطأ ، وقد رأيته على صدر النسخة التى تحمل رقم ١٢١ لغة بدار الكتب المصرية من كتاب الغريب المصنف ، وفى الفهارس القديمة بالدار وفى كتاب كشف الظنون[٢] وفى مواضع أخرى .

وهكذا لا يوضح لنا التاريخ شيئاً كثيراً عن أسرة هذا العالم ونسبه .

وكل ما يعرف عن والده أنه كان يعمل جمالا ، وأنه نال حريته ، وصار مولى للأزد ، وأنه كان رجلا محبا للعلم والعلماء ، وقد ظهر أثر ذلك فى توجيهه ولده القاسم إلى الدرس والتعلم ، وقد حفظ لنا المؤرخون كلمته الذكية التى وجهها إلى شيخ المكتب وقد ذهب بولده إليه ، وأوصاه به قائلا :

« علمى القاسم فإنها كيسة[٣] »

وفى هذه الكلمة على الرغم من اللكنة الواضحة فيها ما يدل على الفراسة والرؤية الواضحة للمستقبل ، فقد أثبتت الأيام صدق هذا الوالد ، وحسن تقويمه لقدرات ابنه ومواهبه .

لقد ولد أبو عبيد فى مدينة « هراه » ، تلك المدينة القديمة التى بناها الإسكندر المقدونى على نهر أريوس والتى فتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عمر رضى الله عنه ، والتى خربها التتار بعد ذلك سنة ٦١٨ هـ .

---

(١) مراتب النحويين ص ٢

(٢) كشف الظنون حـ ٢ ص ٢٠٠ وقد ذكر له نسبة أخرى هى : الحريرى وذلك ص ١٥٨ جـ ٢ ولم أر هذه النسبة عند غيره .

(٣) تاريخ بغداد ٤٠٣/١٢

وهى مدينة لها فى التاريخ العلمى ذكر واضح وإليها نسب كثير ممن ساهموا فى بناء الصرح الخالد لعلوم الإسلام والعربية(١) .

وقد ذكر الحافظ بن الجوزى أن مولد أبى عبيد كان فى سنة خمسين ومائة ، وقال أبو بكر الزبيدى فى كتاب التقريظ أن مولده سنة أربع وخمسين ومائة(٢) » .

ولا نكاد نعرف شيئا ذا بال عن فترة النشأة الأولى لأبى عبيد ، وتلك عادة التاريخ ، لا يعنى بهؤلاء العظماء إلا بعد ظهورهم ونبـــوغهم فتظل طفولتهم ومراحل تكوينهم مغمورة غامضة إلى حد كبير

إن كل ما نعرفه عن هذه الفترة من حياة أبى عبيد أنه أرسل مع ابن سيده إلى المكتب على عادة القوم فى تربية أبنائهم فى هذا العصر وأن أباه ـ كما سبق ـ قد لمح فيه معالم الذكاء فأوصى به الشيخ وهو يأمل أن يكون ابنه فى يوم ما من حملة العلم وأرباب الفضل .

وفى هذا المكتب تلقى أبو عبيد ما يتلقاه أمثاله من حفظ القرآن الكريم ، ومبادىء العلوم الإسلامية والعربية .

وكان من الممكن أن يقنع مثل هذا الطالب الفقير بهذا القدر ، لكننا نراه لا يكتفى بما تلقاه فى الكتاب ، وإنما يخرج إلى لقاء العلماء والأخذ عن المحدثين والفقهاء ، وفصحاء الأعراب وغيرهم غير قانع بما فى بديغة هراه بل حاملا رحله إلى كل بلد ترتفع فيه منارات العلم ، ورايات العلماء .

---

(١) انظر عنها : مسالك الممالك ٣٩٣ وما بعدها .

(٢) وفيات الأعيان ٣/٢٢٦

وهكذا عرفته «البصرة»، و «الكوفة»، وبغداد، والشام(١)، ومصر وغيرها وشهدت رحلاته، طالبا للعلم لا يمل ولا يكل، ولا يعترف بحدود يقف عندها أو يظن أنها تمنع من مواصلة الطلب والاستمرار في الدرس.

وليس أدل على هذا من ذهابه إلى البصرة وهو في أخريات حياته ليسمع من شيخها (حماد بن زيد) فيجده قد فارق الحياة فيصيبه الحزن والغم لذلك، حتى ليشكو هذا إلى عبد الرحمن بن مهدي فيعزيه عبد الرحمن عن هذا بقوله: (مهما سبقت به فلا تسبقن بتقوى الله عز وجل(٢)).

ومن أجل هذا كانت رحلته أيضاً إلى مصر سنة ٢١٣ هـ وقد صحب فيها يحيى بن معين، وفيها كتب وحكى عنه..: وفيها أرخه غير واحد كما يروى صاحب تهذيب التهذيب(٣).

وفي مثل هذا السن أيضاً شهدته مكة حاجا ومجاورا حتى كتب الله له أن يشرف جسده بالبقاء في ترابها الطاهر إلى يوم القيامة، فقد دفن أبو عبيد بمكة سنة ٢٢٤ هـ في أرجح الأقوال.

وقد تهيأ له بتلك البيئات التي عاش فيها أو رحل إليها أن يلتقى

---

(١) يقول الداوودي: وقال ابن عساكر: قدم دمشق طالب علم قال ابن يونس سكن بغداد، وقدم مصر مع يحيى بن معين سنة ثلاث عشر ومائتين وكتب بمصر انظر طبقات المفسرين الورقة ٢٠٠ (أ) «خ» دار الكتب المصريه.

(٢) تاريخ بغداد حـ ١٢ ص ٤٠٨

(٣) انظر: تهذيب التهذيب حـ ٨ ص ٣١٦

بأعظم علماء عصره فى كل فن وعلم ، وأن يأخذ عن كثيرين عرفهم العالم الإسلامى أئمة للفكر فيه وقادة للعلوم والفنون .

فقد قرأ القرآن الكريم على الكسائى ، وإسماعيل بن جعفر ، وشجاع ابن أبى نصر وغيرهم .

ويذكر ابن الجزرى هذا فيقول :

« أخذ القراءة عرضاً وسماعا عن (س مب ج ك) على بن حمزة الكسائى و(ك) شجاع بن أبى نصر ، وسليمان بن حماد ، و(ج) إسماعيل بن جعفر و (ك) حجاج بن محمد و(ج) هشام بن عمار ، وعبد الأعلى بن مسهر (ك) سليم بن عيسى و (ك) يحيى بن آدم(١) .

أما الحديث الشريف فقد سمعه ورواه عن كثير من أئمة العلم به والسند فيه .

يقول السبكى عنه :

« وسمع الحديث من إسماعيل بن عياش ، وإسماعيل بن جعفر ، وهشيم ابن بشير ، وشريك بن عبد الله . وهو أكبر شيوخه وعبد الله بن المبارك وأبى بكر بن عياش ، ، جرير بن عبد الحميد ، وسفيان بن عيينة وخلائق آخرهم موتا هشام بن عمار(٢) .

وقد ذكر البغدادى أنه سمع أيضاً من إسماعيل بن علية ويزيد بن

---

(١) غاية النهاية حـ ٢ ص ١٨ وهذه الرموز تعنى كتب القراءات المشهورة عند ابن الجزرى وذلك على النحو التالى : س : كتاب المستنير ، مب : المبهج ، ج : جامع البيان للدانى ، ك : كتاب الكامل للهذلى . . أنظر الجزء الأول ص ٣

(٢) طبقات الشافعية حـ ١ ص ٥٧٠ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية .

ويزيد بن هارون ، ويحي بن سعيد القطان ، وحجاج بن محمد ، وأبي معاوية الضرير ، وصفوان بن عيسى ، وعبد الرحمن بن مهدى ، وحماد بن مسعدة ومروان ابن معاوية ، وعمر بن يونس ، وإسحاق الأزرق وغيرهم(١) .

أما الفقه فقد ذكر صاحب طبقات الشافعية أنه تفقه على الشافعى وتناظر معه فى القرء هل هو حيض أو طهر إلى أن رجع كل منهما إلى ما قاله الآخر(٢) .

ويقول صاحب طبقات الحنابلة عن أبى عبيد :

« وكان يقصد إمامنا أحمد ويحكى عنه أشياء »(٣) .

ومما يلاحظ أيضاً أن بعضهم يذكر أنه أخذ عن أئمة الحنفية وأنه كان من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة على حين أننا لا نعدم أيضاً من يومىء إلى تفقه أبى عبيد بأقوال الإمام مالك بن أنس وآرائه .

وفى هذا كله ما يدل على أن أبا عبيد كان يلتقط الحكمة أينما وجدها، ويطلب الفقه فى الدين ، والعلم به فى كل مظانه ، وسترى أن هذا المنهج قد ارتقى به إلى درجة الإمامة والتفرد بالرأى .

ونأتى إلى اللغة فنرى أنفسنا أمام طالب واسع الأفق ، رحب الصدر، بعيد النظر ، مجردا عن الهوى ، ومن ثم فإنه يأخذ العلم باللغة وروايتها من كل مدرسة ، ومن كل فم تمكنت أذنه من سماع مايخرج منه ، دون نظر إلى

---

(١) تاريخ بغداد ج١٢ ص٤٠٣

(٢) طبقات الشافعية ج١ ص ٢٧٠ وما بعدها

(٣) طبقات الحنابلة للقاضى أبى يعلى ج١ ص ٢٥٩

كونه كوفيا أو بصريا أو بغداديا أو من غير هؤلاء فالحقيقة هى المطلوبة، والرواية الصحيحة هى المطلب ، والتلمذة الصادقة هى المنهج ، فما المانع إذن أن يأخذ هذا الطالب التقى ما يريده من اللغة وعلومها عن أشهر علماء عصره بها ، وأكثرهم معرفة ورواية لها .

لقد أخذ أبو عبيد عن الأصمعى ، وأبى زيد ، وأبى عبيدة وغيرهم من أئمة البصرة ، كما أخذ عن الكسائى ، وأبى عمرو الشيبانى ، والفراء، وغيرهم من أئمة الكوفة .

وقد روى أيضاً عن كثير من الأعراب الفصحاء مثل العديس الكنانى ، وأبى الجراح العقيلى ، وأبى زياد الكلابى وغيرهم .

ومع أننا سنفصل الحديث عن ذلك فى المستقبل القريب إلا أننا نحب أن نؤكد مرة أخرى على أن أبا عبيد لا يكاد يترك عالما باللغة ، أو راويا لها إلا ويأخذ عنه دون ما توقف أو حرج ومن ثم فإنه يمكن القول بأنه كان فى ذلك تلميذ العصر كله وتلميذ جميع أئمته ورواته .

وإذا كانت القراءات ، والفقه ، والحديث ، واللغة تمثل أهم العلوم والثقافات التى شاعت فى هذا العصر ، فإن هناك علوما أخرى كثيرة كانت تدور فى فلك هذه العلوم وتخدمها تتصل بها من قريب أو بعيد .

وكان شأن عامة المتعلمين أن يأخذوا بأطراف من تلك العلوم تاركين التعمق فيها لأهل التفرد بها والتخصص فيها ؛

ولم يكن أبو عبيد من هؤلاء العامة نقد أبت نفسه إلا أن يطلب كثيرا من تلك العلوم طلب من يبغى التخصص ويريد التعمق .

ومن ثم لم يكن عجيبا بعد ذلك أن يطلب أبو عبيد علم التاريخ والأخبار، وأن يتطلع إلى معرفه علم الأنساب وغيره .

وكان له من شيوخه السابقين وغيرهم مثل ابن الكلبى خير معين على تحقيق هدفه وتحصيل ما يرجوه من تلك المعارف والثقافات ، ولا تكاد السنون تتقدم بهذا الفتى الرومى الخراسانى حتى نراه متربعا على عرش العلوم الإسلامية والعربية ، لا يكاد ينازعه فى منزلته منازع .

فهو فى علوم القرآن وقراءاته الإمام الكبير الحافظ العلامة أحد الأعلام المجتهدين وصاحب التصانيف فى القراءات .

روى عنه القراءة (مب) أحمد بن إبراهيم وراق خلف و(س ك) أحمد ابن يوسف التغلبى و(ج ك) على بن عبد العزيز البغوى ، والحسن بن محمد ابن زياد القرشى ، ومحمد بن أحمد بن عمر البانى ، وأحمد بن الحسن بن عبدالله المقرى كذا ذكره أبو على الرهاوى ، ونصر بن داود و (ك) ثابت بن عمرو بن أبى ثابت .

وله إختيار فى القراءة وافق فيه العربية والأثر[١] .

وهو أول من وضع كتابا فى علم القراءات ، كما يذكر المؤرخون لهذا العلم[٢] .

وكذلك تحقق لأبى عبيد القدر الكبير فى الإحاطة بعلم معانى القرآن وتفسيره ، وعلم فضائله ، وناسخه ومنسوخه وغير ذلك كما سيظهر عند ذكر مؤلفاته .

وفى الحديث وعلومه كان أبو عبيد الثقة المأمون ، صاحب الأسانيد ،

---

(١) غاية النهاية حـ ٢ ص ١٨

(٢) أنظر : كشف الظنون حـ ٢ ص ٢٩٤

وشارح غريب الحديث ، والحافظ الذى ينفرد أحيانا برواية ما ليس عند غـــيره .

يقول عبد الغنى بن سعيد الحافظ : فى كتاب الطهارة لأبى عبيد القاسم ابن سلام حديثان ما حدث بهما غير أبى عبيد ولا عن أبى عبيد غير محمد بن يحيى المروزى أحدهما حديث شعبة عن عمرو بن أبى وهب والآخر حديث عبد الله بن عمر عن سعيد المقبرى حدث به يحيى القطان عن عبيد الله وحدث به الناس عن يحيى القطان عن ابن عجلان .

وقد ذكر البغدادى هذين الحديثين بسندهما وأحدهما: عن عائشة رضى الله عنها قالت كان النبى ﷺ إذا توضأ يخلل لحيته. والآخر : رأت عائشة عبد الرحمن توضأ فقالت : يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ويل للأعقاب من النار(١) .

ويروى أيضاً أن حمدان بن سهل يقول : سألت يحيى بن معين عن الكتابة عن أبى عبيد والسماع منه فتبسم وقال : مثلى يسأل عن أبى عبيد ، أبو عبيد يسأل عن الناس لقد كنت عند الأصمعى يوما إذ أقبل أبو عبيد فشق إليه بصره حتى اقترب منه فقال : أترون هذا المقبل ؟ قالوا : نعم قال: لن تضيع الدنيا أو لن تضيع الناس ما حي هذا المقبل .

ثم يذكر أن أبا داود سليمان بن الأشعث سئل عن القاسم بن سلام فقال : ثقة مأمون(٢) .

وفى هذا المجال يروى عنه كثيرون بعضهم كان من شيوخه على حد

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٤١٣ وما بعدها

(٢) المرجع السابق جـ ١٢ ص ٤١٤ وما بعدها

قول الحافظ ابن حجر العسقلانى : وروى عنه سعيد بن أبى مريم المصرى وهو من شيوخه(١) .

ويواصل ابن حجر الحديث عن منزلة أبى عبيد فى هذا فيقول: « ذكره البخارى فى جزء القراءة خلف الإمام ، وحكى عنه فى كتاب الأدب وفى كتاب أفعال العباد ، وذكره أبو داود فى تفسير أسنان الإبل من كتاب الزكاة ، ورثاه عبد الله بن طاهر لما بلغه موته قلت : قد وجدت له رواية فى الصحيح ، والموضع الذى حكاه عنه فى الأدب قوله عقب قول ابن الحنفية هل جزاء الإحسان إلا الإحسان قال هى مسجله للبر والفاجر قال أبو عبيد مسجله : مرسلة ، وذكره الترمذى فى الجامع فى غير موضع ، منها فى القراءات قال : وقرأ أبو عبيد والعين بالعين يعنى بضم النون ، ووقع فى الصحيح فى أحاديث الأنبياء عليهم السلام قال أبو عبيد : كلمته كن فكان(٢) .

فهذا رأيته من كلام أبى عبيدة معمر بن المثنى أيضا ، وفى الصحيح أيضا فى الزكاة : وقال أبو عبيد كل بستان عليه حائط فهو حديقة ، وفى كتاب الرقاق من الصحيح قال الفزارى قال أبو جعفر يعنى وراق البخارى سألت البخارى فقال سمعت أحمد بن عاصم يقول : سمعت أبا عبيد يقول قال الأصمعى وأبو عمرو وغيرهما : جذر قلوب الرجال : الجذر الأصل من كل شىء والوكت أثر الشىء اليسير منه والمجل أثر العمل فى الكف إذا غلظ(٣) .

وقال ابن حبان فى الثقات : كان أحد أئمة الدنيا صاحب حديث ، وفقه ، ودين ، وورع ، ومعرفة بالأدب وأيام الناس جمع ، وصنف ،

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٨ ص ٣١٥
(٢) انظر : شرح صحيح البخارى للشيخ رزوق ٦ / ٤٢٢
(٣) انظر فتح البارى ١ / ٣٣٣

واختار ، وذب عن الحديث ، ونصره وقمع من خالفه(١) .

وربما كفاه فى هذه الناحية ما ذكر من قراءة الأئمة عليه وسماعهم منه وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل وغيره .

وفى الفقه تحقق لأبى عبيد مقام المجتهدين وقد سبق أن ذكرنا أنه أخذ من كل أصحاب المذاهب المشهورة تقريبا أو من تلامذتهم ومن ثم فقد نسبه كل أصحاب مذهب إلى منهجهم فهو شافعى عند الشافعية ، حنفى عند أصحاب أبى حنيفة(٢) ، حنبلى عند الحنابلة مالكى فى عرف المالكية .

والحق أن الرجل كان قد بلغ مرتبة الاجتهاد والاستقلال فى استنباط الأحكام ، واستخراج فروع الشريعة ، مما حصله من مصادرها التى كان له القدم الثابت فيها جميعا .

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره السبكى من مناظرته للشافعى ورجوع كل منهما إلى قول صاحبه ، فهو يذكر أنهما تناظرا فى القرء فكان الشافعى يقول إنه الحيض ، وأبو عبيد يقول : انه الطهر فلم يزل كل منهما يقرر قوله حتى تفرقا ، وقد انتحل كل واحد منهما مذهب صاحبه وتأثر بما أورده من الحجج والشواهد .

ويعلق صاحب الطبقات على هذه المناظرة فيقول :

« قلت وإن صحت هذه الحكاية ففيها دلالة على عظمة أبى عبيد فلم يبلغنا عن أحد أنه ناظر الشافعى ثم رجع الشافعى إليه ففيها دلالتان على

(١) تهذيب التهذيب ٣١٧ وما بعدها

(٢) انظر : فهارس البخارى ص (أ) . وانظر مقدمة تحقيق : فصل المقال ص هـ

رفعة مقداره بمناظرته مع الشافعي ثم رجوع الشافعي إلى مذهبه(١) .

وفي هذه المناظرة وغيرها ما يدل حقا على أن أبا عبيد كان مجتهدا وأستاذا كما وصفه كثير من العلماء والأئمة .

ونعمت الأستاذية عندما تمنح من أمثال أحمد بن حنبل الذي يقول عن أبي عبيد إنه أستاذ(٢) ، ويحيل السائلين إليه داعيا الله أن يجزيه الخير عن العلم وأهله .

وقد ألمح إلى هذه الإمامة والريادة في الشريعة وعلومها كثيرون(٣) .

أجل لقد حصل أبو عبيد من ثقافات عصره وعلومه كل ما يليق بمن يهيىء نفسه لخدمة العربية والإسلام .

وقد كان علم اللغة كما سنرى على رأس تلك العلوم تى حصلها وتعمق في دراستها حتى بلغ فيها مرتبة الامامة والريادة .

وقد جرت العادة عند التأريخ للعلماء أن يوصف الواحد منهم بالتقدم في علم أو علمين أو ثلاثة لكن هذه القاعدة أو الفكرة لا تكاد تنطبق على

---

(١) طبقات الشافعية جـ ١ ص ٢٧٣

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦ وسيأتي

(٣) يقول الشيخ الكوثري عن البخاري : ولم يكن البخاري يكتفي بالرواية المجردة بل كان يجول في ميدان الاجتهاد مزاحما أئمة الفقه المعروفين وفي أغلب ما ينفرد به من المسائل عن الأئمة الأربعة تجده موافقا لآراء الإمام المجتهد ابي عبيد القاسم بن سلام الهروي الأصل ثم البغدادي من أصحاب الإمام محمد بن الحسن الشيباني « فهارس البخاري ص ١

أبى عبيد فما من علم يذكر إلا ولأبى عبيد فيه قدم عال أو إمامة وريادة ، أو سبق فى التدوين والتأليف .

يشهد بذلك ويدل عليه أمور منها شهادات العلماء والمؤرخين .

وقد سبق ذكر بعضها ويهمنا أن نذكر هنا بعضا آخر منها .

يقول إبراهيم الحربى : أدركت ثلاثة لن يرى مثلهم أبدا يعجز النساء أن يلدن مثلهم : رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثلته إلا بجبل نفخ فيه روح(١) .

(وقال أحمد بن حنبل : أبو عبيد أستاذ وهو يزداد كل يوم خيرا) ويعلق الذهبى على هذا فيقول :

(قلت : من نظر فى كتب أبى عبيد علم مكانه من الحفظ والعلم ، وكان حافظا للحديث وعلله ، ومعرفة متوسطه ، عارفا بالفقه ، والاختلاف ، رأسا فى اللغة إماما فى القراءات له فيها مصنف(٢) .

ويقول عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسى النحوى : أبو عبيد من علماء بغداد المحدثين النحويين على مذهب الكوفيين ، ورواة اللغة والغريب عن البصريين والكوفيين ، والعلماء بالقراءات ، وممن جمع صنوفا من العلم وصنف الكتب فى كل فن من العلوم والآداب فأكثر وشهر(٣) .

ويقول الأزهرى عنه : وكان دينا فاضلا ، عالما أديبا فقيها ، صاحب سنة ، معنيا بعلم القرآن وسنن رسول الله ﷺ والبحث عن تفسير الغريب والمعنى المشكل(٤) .

---

(١) تاريخ بغداد حـ ١٢ صـ ٤١٢

(٢) تذكرة الحفاظ حـ ٢ صـ ٦

(٣) طبقات المفسرين ٢٠٠ (ب)

(٤) تهذيب اللغه ١/٤٥

« وقال ابن ناصر الدين هو ثقة ، إمام ، فقيه مجتهد ، أحد الأعلام وقد كان إماما فى القراءات ، حافظاً للحديث وعلله الدقيقات ، عارفاً بالفقه والتعريفات رأساً فى اللغة ، ذا مصنفات »(١) .

وعن محمد بن أبى بشر قال : أتيت أحمد بن حنبل فى مسألة فقال لى : ائت أبا عبيد فإن له بيانا لا تسمعه من غيره ، قال . فأتيته فشفانى جوابه »(٢) .

وقال أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النقاش : أبو عبيد القاسم بن سلام من أبناء أهل خراسان وكان صاحب نحو وعربية ، طلب الحديث والفقه وولى قضاء طرسوس . . . وقدم بغداد فسمع الناس منه علماً كثيراً(٣) .

و « سئل أبو قدامة عن الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحق وأبى عبيد فقال : أما أفهمهم فالشافعى إلا أنه قليل الحديث ، وأما أورعهم فأحمد ابن حنبل ، وأما أحفظهم فإسحق ، وأما أعلمهم بلغات العرب فأبو عبيد » .

« وقال اسحق بن إبراهيم الحنظلى : أبو عبيد أوسعنا علماً ، وأكثرنا أدباً ، وأجمعنا جمعاً ، إنا نحتاج إلى أبى عبيد ، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا ، وقال إسحق : الحق يحبه الله عز وجل أبو عبيد القاسم بن سلام أفقه منى وأعلم منى وإن الله لا يستحيى من الحق أبو عبيد أعلم منى ومن ابن حنبل ، والشافعى ، وقال ثعلب : لو كان أبو عبيد فى بنى إسرائيل لكان عجباً »(٤) .

---

(١) شذرات الذهب حـ ٢ ص ٥٤
(٢) غاية النهاية ١٨/٢
(٣) إنباه الرواة حـ ٣ ص ٢٠
(٤) المرجع السابق حـ ٣ ص ١٨ وما بعدها .

وإذا كانت كل هذه الشهادات والأقوال تبين سعة ثقافة شيخنا وتوضح اتساع المدى الذى حققه فى مختلف العلوم والفنون فإننا لا نعدم بعض الأقوال القليلة التى تحاول الغض من قيمة هذه العقلية والحط من قدرها الذى أكبره العارفون وعظمه الدارسون .

ويقتضى الإنصاف أن نشير إليها حتى لا تخرج عن الموضوعية التى كان يؤمن بها أبو عبيد كل الإيمان .

فقد ذكروا أن إبراهيم الحربى قال عنه إنه كان يحسن كل شىء إلا الحديث فإنه صناعة أحمد ويحى(١) .

ولست أرى فى هذا النص إذا صح ما يغض من قيمة الذى يحسن كل شىء فما عليه إذن بأس أن يأتى فى الدرجة الثانية بعد هذين العلمين الكبيرين اللذين تخصصا فى علم الحديث وروايته ، على أنه قد شاركهما فى هـــذا وتفوق عليهما فى علم غريب الحديث فقد وردت روايات كثيرة بأنهما قد قرآ عليه هذا العلم الأخير وأخذاه عنه مثنين عليه ، داعين له(٢).

ومع هذا فقد ذكر كثيرون ما كان لأبى عبيد من منزلة كبرى فى علم الحديث وقد مر بعضها .

وقد روى البخارى بسنده عن الصاغانى قال : سمعت أبا عبيد يقول : ما كان على من حفظ خمسين حديثاً مؤونة(٣) .

أما ما رووه عن ابن السكيت من تنقيصه لأبى عبيد فقـــد وضح لنا

---

(١) تهذيب التهذيب ـ ٨ ص ٣١٦

(٢) أنظر : إنباه الرواة ٣/١٦

(٣) طبقات الزبيدى : ص ٢١٨

أبو عبيد نفسه السبب فى هذا حيث تقول الرواية أن أبا عمرو ابن الطوس قال : قال لى أبى : غدوت إلى أبى عبيد ذات يوم فاستقبلنى يعقوب بن السكيت فقال لى : إلى أين ؟ قلت إلى أبى عبيد فقال : أنت أعلم منه قال : فمضيت إلى أبى عبيد فحدثته بالقصة فقال لى : الرجل غضبان قال : قلت من أى شىء ؟ فقال : جاءنى منذ أيام فقال لى : اقرأ على غريب المصنف فقلت : لا ولكن تجىء مع العامة فغضب »(١) .

ويمكن أن يحمل على هذا اللون من الغضب والحسد ماذكر عن اسحق ابن إبراهيم الموصلى من أنه كان يشهر بأخطاء أبى عبيد فى الغريب المصنف كما سيأتى :

على أن أخطاء العلماء أمر مقرر عند أهل الوعى والفكر ، وما قال أحد بأن ذلك ينقص من قدرهم ، أو يحط من قيمتهم ، وقد كان رد أبى عبيد على من أخبره بنقد الموصلى جميلا ، خليقاً بأمثالة من أهل الدين والعلم(٢) .

أما كلام أبى الطيب اللغوى ومن اتبعه وماذهبوا إليه من أن أبا عبيد كان قليل الرواية ، تقطعه عن اللغة علوم أفتن فيها وأنه كان ناقص العلم بالإعراب ، وغير ذلك مما تلوح فيه رائحة الحسد البصرى والتعصب على هذا العالم الكوفى ، فإننا لم نر مع محاولة البحث والتقصى أحداً آخر قال به أو ذهب إليه ، بل كان ما رأيناه على عكس هــــذا كما مر ذكره ، وقد قال

---

(١) إنباه الرواه حـ٣ صـ١٧ وأنظر تاريخ بغداد حـ١٢ صـ٤٠٨

(٢) وقد ذكر هذه القصة غير واحد وانظر : طبقات الزبيدى صـ٢٢١ ، وإنباه الرواة حـ٣ صـ١٩ وما بعدها .

أبو الطيب نفسه عن أبي عبيد ما نصه : « وكان مع هـذا ثقة ورعا لا بأس به »(١) .

ولنا — إن شاء الله — وقفة آتية للفصل فى تلك القضية .

* * *

وهكذا يتبين لنا من أقوال هؤلاء الأعلام أن أبا عبيد قد تفوق فى أكثر ألوان العلم والثقافة التى عرفها عصره على حد قول النووى عنه : وكان إماما بارعا فى علوم كثيرة منها : التفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، والتاريخ(٢) .

مؤلفاته وآثاره

أما الأمر الثانى مما يكشف عن علمه وثقافته فإنه يظهر فيما قدمه هذا العالم المجتهد من مؤلفات وآثار علمية ذات تنوع عجيب .

وهمنا قبل أن نذكر تلك المؤلفات والآثار أن نشير إلى ماشهد به العلماء لأبى عبيد من حسن التأليف وروعة التصنيف وكثرته .

فقد ذكر أبو الطيب أنه مصنف حسن التأليف(٣) ، ويقول المرزبانى : « وممن جمع صنوفا من العلم وصنف الكتب فى كل فن من العلوم والأدب فأكثر وشهر أبو عبيد القاسم بن سلام » ... وروى الناس من كتبه المصنفة بضعة وعشرين كتاباً فى القرآن ، والفقه ، وغريب المصنف ، والأمثال ،

---

(١) مراتب النحويين ص ٩٣

(٢) تهذيب الأسماء واللغات : القسم الأول ج ٢ ص ٢٠٧

(٣) مراتب النحويين ص ٩٣

ومعانى الشعر ، وله كتب كثيرة لم ترو فى أصناف الفقه كله ، وكان إذا ألف كتابا أهداه إلى عبد الله بن طاهر ، فيحمل إليه مالا جزيلا استحسانا لذلك ، وكتبه مستحسنة مطلوبة فى كل بلد ، والرواة عنه مشهورون ثقات ذوو ذكر ونبل(١) .

ويقول الجاحظ فى كتاب المعلمين عن أبى عبيد : كان مؤدباً لم يكتب الناس أصح من كتبه ولا أكثر فائدة(٢) .

وحسبك شهادة الجاحظ لهذا العالم الفذ ، لنقف بعض الوقت مع ما وصل إلينا عبر التاريخ من هذه المصنفات الحسنة أو من أسمائها حتى يأذن الله لتراث هذا الإمام المجتهد برؤية النور لينتفع الناس فى عصرنا به كما انتفع به السابقون الذين عرفوا قيمته وقدره .

أولا : علوم القرآن :

ذكر المؤرخون لأبى عبيد فى القرآن مصنفات أهمها :

١ — كتاب القراءات :

ذكره ابن النديم فى الفهرست(٣) ضمن مؤلفات أبى عبيد ويعده ابن الجزرى أول كتاب فى هذا الفن إذ يقول : « فلما كانت المائة الثالثة واتسع الخرق ، وقل الضبط ، وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان فى ذلك العصر ، تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات ، فكان

---

(١) إنباه الرواة ج ٣ ص ١٣

(٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٥٥

(٣) الفهرست ص ١١٢

أول إمام معتبر جمع القراءات فى كتاب : أبو عبيد القاسم بن سلام ، وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفى سنة أربع وعشرين ومائتين »(١).

وقد ذكر هذا أيضاً صاحب كشف الظنون(٢) وأشار القسطلانى إلى أن العلماء تبعوا أبا عبيد فى هذا إذ يقول :

« ثم تلاه الجماعة سالكين سننه ، متقلدين منته ، فكثرت التآليف وانتشرت التصانيف ، واختلفت أغراضهم بحسب الإيجاز والتطويل ، والتكثير والتقليل ، وكل له مقصد سنى ، ومذهب مرضى ، فكان أول من تابعه أحمد بن جبير الكوفى نزيل أنطاكية »(٣) .

وقد ذكر ابن خير هذا الكتاب فى فهرسته ، وذكر أنه حدثه به شيخه أبو الحسن شريح بن محمد المقرى ، قراءة عليه وهو يسمع وذكر سنده حتى أبى عبيد(٤) .

هذا ولم يشر « بروكلمان » إلى هذا الكتاب(٥) وكذلك لم يذكر فؤاد سزكين شيئاً عن وجوده ، وذلك على الرغم من إشارته إلى دور أبى عبيد فى ضبط القراءات حيث يقول : « ويبدوا أن أول محاولة لتكوين نص مضبوط معتمد ترجع إلى النحاة فى ذلك العصر فسيبوية اعتمد على قراءة بصرية عادية ، مع أنه كان يعرف كل القراءات المحلية للأماكن الأخرى

---

(١) النشر حـ ١ ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) كشف الظنون حـ٢ ص ٢٩٤

(٣) لطائف الإشارات حـ١ ص ٨٥

(٤) فهرسة مارواه عن شيوخه ص ٢٢

(٥) أنظر : تاريخ الأدب العربى حـ ٢ ص ١٥٥ وما بعدها

ماعدا دمشق ، أما أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م الذى وقف بين المدرستين النحويتين : البصرية والكوفية موقف التوفيق ومعاصره أبو حاتم السجستانى فقد وضعا فى انتقائهما من القراءات مبدأ الاختيار ولم يقم هذا المبدأ على أساس عدد القراء وإنما فوق هذا على قيمة القراءات المحلية المختلفة وعلى منزلة القراء أنفسهم »(١) .

ولا نفهم من كلام ابن الجزرى أنه رأى ذلك الكتاب إذ أنه يقول وجعلهم — فيما أحسب — خمسة وعشرين فالظاهر أن الكتاب قد فقد بعد القرن السادس الذى رواه فيه ابن خير أو لعله كان موجوداً بعد ذلك التاريخ ولكن ابن الجزرى المتوفى فى القرن التاسع لم يره ولعل الله يوفق بعض الباحثين فى العثور عليه أو محاولة جمع نصوصه أو بعضها من الكتب والمؤلفات التى ظهرت فيما بعد(٢) .

وقد نقل السيوطى عن هذا الكتاب فى النوع العشرين من كتابه : الإتقان ١/٢٤٨

---

(١) أنظر : تاريخ التراث م (١) ص ١٥٢

(٢) يقول القفطى عن هذا الكتاب ، وله فى القراءات كتاب جيد ليس لأحد من الكوفيين قبله مثله .

أنظر إنباه الرواة حـ ٣ ص ١٥

٢ — كتاب معانى القرآن :

ذكره ابن النديم ضمن مؤلفات أبى عبيد(١) ويقول الأزهرى فى مقدمة تهذيبه : ولأبى عبيد كتاب فى معانى القرآن أنتهى تأليفه إلى سورة طه ، ولم يتمه وكان المنذرى سمعه من على بن عبد العزيز وقرىء عليه أكثره وأنا حاضر .. » ، وقد عده الأزهرى من مصادره(٢) .

وقد أشار إليه القفطى(٣) ، وابن شاكر(٤) ، وذكره حاجى خليفة بين الكتب المؤلفة فى معانى القرآن(٥) .

ويشير الدكتور حسين نصار إلى موضوع هذا الكتاب ونظائره وعلاقتها بالدراسات اللغوية فيقول :

« وقامت حول القرآن دراسات أخرى باسم معانى القرآن ، وتفسير القرآن ، ومشكل القرآن ، ولكن « المعانى » هى النواة الأولى للتفسير ، فهى أقرب إلى كتب الشروح منها إلى الكتب اللغوية الخالصة .

ويبين الفرق بينهما وبين كتب التفسير فيقول : الفرق بينهما أن كتب المعانى كانت تختار من الآيات ، أما كتب التفسير فكانت

---

(١) الفهرست ص ١١٢

(٢) تهذيب اللغة حـ ١ ص ٢٠

(٣) إنباه الرواه حـ٣ ص ١٤

(٤) عيون التواريخ ٢٨٨

(٥) كشف الظنون حـ٢ ص ٤٦١

تحاول ألا تترك شيئاً بغير شرح وأن كتب المعانى هى الصورة الأولى لكتب التفسير »(١) .

ويقول ابن الصلاح:وحيث رأيت فى كتب التفسير : قال أهل المعانى فالمراد به مصنفوا الكتب فى معانى القرآن كالزجاج ، والفراء، والأخفش وابن الأنبارى(٢) .

ولم يذكر « بروكلمان » شيئا عن هذا الكتاب ، مما يشير إلى أنه مازال مفقوداً .

وقد أشار «سزكين» إلى فقد أكثر تلك الكتب المتصلة بمعانى القرآن ، وأشار أيضاً إلى أنه لم يصل إلينا من كتب تلك الفترة إلا كتابان هما مجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى سنة ٢٠٠ / ٨٢٥ م ومعانى القرآن للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م

ومعنى هذا أن كتاب أبى عبيد يعد من تلك الكتب المفقودة ،والظاهر أن سبب فقد هذا الكتاب يرجع إلى عدم تمام سماعه منه يقول القفطى مشيراً إلى طبيعة هذا الكتاب ومصادره :

« وكذلك كتابه فى معانى القرآن ، وذلك أن أول من صنف فى ذلك من أهل اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ثم قطرب بن المستنير ، ثم الأخفش وصنف من الكوفيين الكسائى ثم الفراء ، فجمع أبو عبيد من كتبهم وجاء فيها بالآثار وأسانيدها وتفاسير الصحابة والتابعين

---

(١) المعجم العربى : حـ ١ ص ٤٩

(٢) الاتقان حـ ٢ ص ٣

والفقهاء، وروى النصف منه ، ومات قبل أن يسمع منه باقية وأكثره غير مروى عنه(١) .

وقد ذكروا فى سبب عدم تمام هذا الكتاب أن الإمام أحمد بن حنبل كتب إلى أبى عبيد يقول : « بلغنى أنك تؤلف كتاباً فى القراءات [كذا] أقمت فيه الفراء وأباعبيده أئمة يحتج بهم فى معانى القرآن فلا تفعل» كما ذكروا أن إسماعيل بن إسحق أخذ الكتاب ، وزاد فيه زيادة وانتهى إلى حيث أنتهى أبو عبيد وتوفى فجأة سنة ٢٨٢(٢) .

٣ — كتاب غريب القرآن :

وقد ذكره ابن النديم فى مؤلفات أبى عبيد(٣) ونقله عنه القفطى(٤) وأشار إليه ابن شاكر(٥) وكذلك فعل حاجى خليفة فى كشف الظنون فقد ذكر أن جماعة قد أفردوا غريب القرآن بالتأليف منهم أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط المتوفى سنة ٢٢١ هـ والقتبى ، والنضر ابن شميل المتوفى سنة ٢٠٣ هـ وأبو فيد مؤرج بن عمرو النحوى السدوسى المتوفى سنة ١٧٤ هـ وأبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكرى المتوفى

---

(١) إنباه الرواة ١٤/٣ وما بعدها .

(٢) أنظر أبو على الفارسى : حياته ومكانته .. للدكتور عبد الفتاح شلبى ص ٢٧١ وقارن بما كتبه د . عبد الجليل شلبى فى مقدمته لتحقيق معانى القرآن للزجاج ص ى

(٣) الفهرست ١١٢

(٤) إنباه الرواة ٢٢/٣

(٥) عيون التواريخ ٢٨٨

سنة ١٤١ هـ وأبو بكر أحمد بن كامل المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وأبو عبيد القاسم بن سلام الحريرى(١) الكوفى المتوفى سنة ٢٢٤ هـ .

ويذكر الدكتور حسين نصار أن ياقوتا روى فى معجم الأدباء أن كتاب أبى عبيد فى غريب القرآن منتزع من كتاب أبى عبيدة(٢) . وقد ذكر هذا أيضاً د محمد حسين آل ياسين(٣) .

والواضح أن ياقوتا قد نقل هذا الكلام عن أبى الطيب اللغوى الذى كان — فيما يبدو — لايرى لأبى عبيد فضلا فى مؤلفاته وكان يحاول دائماً إرجاع الفضل فيها إلى غيره لأمر ما ربما عرضنا له فيما بعد(٤) .

هذا ولم يذكر بروكلمان ولا فؤاد سزكين شيئاً عن هذا الكتاب مما يدل على أنه مازال فى عداد الكتب المفقودة وإن كان بروكلمان قد أشار إلى احتمال كون القائمة المشتملة على ماورد فى القرآن من لغات القبائل مأخوذة من هذا الكتاب(٥) .

---

(١) عيون التواريخ ٢٨٨

(٢) كشف الظنون ١٥٨/٢

(٣) المعجم العربى : ٤١/١

(٤) الدراسات اللغوية عند العرب : ١٥٠

(٥) أنظر : مراتب النحويين : ٩٣

(٦) انظر : تاريخ الأدب العربى ١٥٩/٢

وقد طبعت تلك القائمة المشار إليها على هامش كتاب التيسير فى علم التفسير لعبد العزيز الديرينى المتوفى سنة ٦٩٤ هـ .

ولعلنا فى غير حاجة إلى أن ننبه إلى ما لهذا النوع من التأليف من أثر فى خدمة اللغة والحفاظ على معجمها وإمداده بما يكفل له البقاء والخلود فقد كفانا ذلك المؤلفون فى تاريخ المعجم العربى ونشأته وتطوره . مثل الدكتور حسين نصار والدكتور عدنان الخطيب وغيرهما(١)

٤ — كتاب فضائل القرآن وآدابه (٥) :

ذكره ابن النديم، وابن خير، وابن شاكر، وحاجى خليفة والزركلى، وبروكلمان . وغيرهم .

وقد ذكر جورجى زيدان أن منه نسخة فى مكتبة «برلين»(٢) ويقول عنه بروكلمان : «ولأبى عبيد كتاب بعنوان فضائل القرآن وآدابه يتحدث فيه عن فضائل القرآن كافة وفضائل بعض السور والآيات وعن المفردات والتفسير .. إلخ .

---

(١) انظر : المعجم العربى ١/ ٣٩ وما بعدها وانظر المعجم العربى بين الماضى والحاضر ٣٧ وما بعدها .

(٥) فى فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية :

فضائل القرآن ومعالمه وأدبه تأليف أبى عبيد القاسم بن سلام البغدادى الهروى المتوفى سنة ٢٨٤ [كذا] أوله باب فضل القرآن وتعلمه وتعليمه للناس .

نسخة فى مجلد مصورة بالفوتوستات عن مخطوطة مكتبة الدولة ببرلين فى ٥٨ لوحة كل لوحة ذات شطرين ومسطرتها مختلفة [٢٠١٠١ب].

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢/ ١١٨

وأخرج هذا الكتاب تلميذ لم يذكر إسمه للقارىء محمد بن الحجاج فى حدود سنة ٣٢٠هـ ٩٣٢م ومنه مخطوط فى برلين ٤٥١ وآخر فى توبنجن ٩٥ ونشره إيزن وبروتسل فى مجلة إسلاميكا .

وربما كانت مأخوذة عن هذا الكتاب قائمة القراء التى ذكرها أبو شامة فى شرح الشاطبية وهى تشتمل على سلسلة من قراء الصحابة وأربعين من قراء التابعين وخمسة عشر من قراء متأخرين وأنظر النوع العشرين من كتاب الإتقان للسيوطى ، وذكر ابن الجزرى هذه القائمة أيضاً فى كتاب النشر ١ : ٨٥ وما بعدها دون تسمية المصدر(١) .

وقد رجعت إلى تلك القائمة - كما يسميها بروكلمان - فى الإتقان(٢) والظاهر أن السيوطى قد أفاد فيها من كتاب القراءات إذ أنه قد ذكره ونقل عنه قبل ذلك بقليل(٣) وهو لم يذكر هنا أى شىء عن فضائل القرآن وإنما كان الحديث عن معرفة حفاظه ورواياته فالمناسب أن يكون النقل عن الكتب المتصلة بذلك وهى — بالطبع — كتب القراءات والقراء .

ولقد ذكر « سزكين » أن كتاب فضائل القرآن لأبى عبيد من الكتب التى وصلت إلينا من تلك الحقبة التى كان يتحدث عنها وقد أحالنا فى ذلك إلى بروكلمان(٤) كما أنه أشار إلى أن فى هذا الكتاب بقية من غريب القرآن المنسوب لابن عباس رضى الله عنهما(٥) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى حـ ٢ ص ١٥٨

(٢) الإتقان : ٢٤٤/١ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٨

(٤) أنظر تاريخ التراث العربى م (١)/٢٢٢

(٥) المرجع نفسه ص ١٨٣

٥ — كتاب عدد أى القرآن :

وقد نسبه إليه فى الفهرست(١)، وأكد القفطى هذه النسبة(٢) ، وكذلك فعل ابن شاكر(٣) ، واليافعى(٤) .

ولم يذكر أحد من المحدثين شيئاً عن وجود هذا الكتاب فيما أطلعت عليه .

وقد أشار السيوطى إلى أن عد أى القرآن قد أفرده جماعة من القراء بالتصنيف وقد أشار إلى فائدة ذلك وسببه لكنه لم يذكر أحداً من هؤلاء المصنفين سرداً وإن كان قد نقل فيما يبدو عن بعضهم(٥) .

كذلك لم يشر صاحب أبجد العلوم إلى أحد من المصنفين فى هذا العلم(٦) .

فالظاهر أن هذا الكتاب قد ذهب إلى الضياع منذ وقت مبكر .

---

(١) الفرست : ١١٢
(٢) إنباه الرواة ٣/ ٢٢
(٣) عيون التواريخ ٢٨٨
(٤) مرآة الجنان ٢/ ٨٤
(٥) الإتقان ١/ ٢٣٠ وما بعدها .
(٦) أنظر ص٦٠/ ٥٠٠

٥ — كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه :

يقول ابن خير فى فهرسته : كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه تأليف أبى عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حدثنى به شيخنا الخطيب أبو الحسن شريح بن شريح المقرى رحمه الله قراءة عليه وأنا أسمع .

ويستمر بعد ذلك فى ذكر الطرق والأسانيد التى تصل حبل روايته لهذا الكتاب بأبى عبيد رحمه الله(١) ،ويذكر حاجى خليفة أنه قد ألف فى ناسخ القرآن ومنسوخه جماعة ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام(٢) .

وقد نسب كثيرون إلى أبى عبيد كتاباً باسم : الناسخ والمنسوخ جاء ذلك فى الفهرست لابن النديم(٣) ، وفى معجم الأدباء لياقوت(٤) ،وعيون التواريخ لابن شاكر(٥) .

ولم يذكر أحد من كل هؤلاء شيئاً عن مادة ما ذكره والظاهر أن الجميع يشيرون إلى كتاب واحد وأن الاختلاف جاء فى اسمه فقط والاختلاف فى أسماء الكتب أمر شائع بين الوراقين ، والنساخ والمؤلفين والمؤرخين .

هذا وما يزال هذا الكتاب — حسب علمى — معدوداً بين الكتب المفقودة .

---

(١) انظر فهرسة ما رواه عن شيوخه ٤٧

(٢) كشف الظنون ٢/٥٨٠

(٣) الفهرست ١١٣

(٤) معجم الأدباء ١٦/٢٦٠

(٥) عيون التواريخ ٢٨٨

٧ — كتاب شواهد القرآن :

وقد ذكره ابن خير فى فهرسته فقال : كتاب شواهد القرآن لأبى عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حدثنى به الشيخ الفقيه أبو الحسن يونس بن محمد ابن مغيث رحمه الله عن أبى عمر . . . على على بن عبد العزيز عن أبى عبيد رحمه الله(١) .

ولم أر له ذكراً عند غيره مما اطلعت عليه ، ولم نعرف شيئاً عن موضوعه ولا عن طبيعة الشواهد التى يعنيها .

٨ — المجاز فى القرآن :

وقد ذكره ابن شاكر باسم : كتاب المجاز(٢) أما الداوودى فقد أطلق عليه تسمية المجاز فى القرآن(٣) ، وقد ذكره ابن النديم باسم كتاب المجاز لأبى عبيد وذلك فى غير ترجمته(٤) .

ولم أر — فيما أطلعت عليه — أن أحداً غير هؤلاء نسب إلى أبى عبيد كتابا بهذا الإسم .

وإذا صحت نسبة هذا الكتاب المفقود إلى شيخنا فإن الذى نتصوره أن يكون موضوعه قريبا مما جاء فى كتاب القرآن لشيخه أبى عبيدة معمر ابن المثنى .

---

(١) فهرست مارواه عن شيوخه ٧١

(٢) عيون التواريخ ٢٨٨

(٣) طبقات المفسرين الورقة ٢٠٠ (أ)

(٤) الفهرست : الكتب المؤلفة فى معانى شتى من القرآن ص٧٣

تلك أهم الكتب التى نسبت إلى أبى عبيد فى علوم القرآن ، والمتأمل فى أسمائها وفى نظائرها من الكتب التى عبرت الزمن إليناير أن القاسم المشترك بينهما جميعاً هو العناية بالقرآن الكريم وبلغته العربية الخالدة ومن ثم فإنها جميعاً أو أكثرها تعد من أهم مصادر الدراسات اللغوية وبخاصة ما يتصل منها بغريب القرآن ومعانيه وفضائله ومجازه وقراءاته .

وذلك هو الطابع العام فى كل ما خطه يراع هذا العـــالم الفذ كما سيأتى :

* * *

ثانياً — كتب الفقه والعقيدة والأخلاق :

لقد نسب إلى ابى عبيد مجموعة كبيرة من الكتب والدراسات الفقهية عنى المؤرخون بذكر بعضها وأعرضوا عن ذكر بعضها الآخر .

وقد أشار إلى هذا ابن النديم بقوله بعد ذكر قائمة كتب أبى عبيد: وله غير ذلك من الكتب الفقهية(١) ويقول البغدادى أيضاً : وله كتب لم يروها وقد رأيتها فى ميراث بعض الطاهريين تباع كثيرة فى أصناف الفقه كله .

ويهمنا هنا أن نذكر أهم تلك الكتب التى لم يغفلها المؤرخون لهـذا الفقيه المجتهد .

---

(١) الفهرست ١١٣

(٢) تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٤

كتاب الأموال :

وهو مطبوع مشهور ومعروف لكل الباحثين فى الجانب الاقتصادى من الفقه الإسلامى .

ويقول بروكلمان عنه إنه يتناول أحكام الزكاة والخراج على أساس أدلة الحديث التى ينبغى بحث علاقتها بكتب الخراج الصادرة عن الإدارة العلمية ومن مذاهب أخرى للمدارس الفقهية ، نشره محمد حامد الفقى بالقاهرة سنة ١٤٥٣ ﻫ اعتماداً على أصل مخطوط فى مكتبة دمشق العمومية ٢٣ ٤٠٥ ٢٤ ٣١٠ وعلى أصل آخر فى القاهرة(١) .

والنسخة التى بين يدى ليست بتحقيق محمد حامد الفقى وإنما هى بتحقيق وتعليق محمد خليل هراس وهى موسومة بالطبعة الثانية .

وقد أشير فى مقدمتها إلى الطبعة الأولى بصورة توحى أن تلك الطبعة أيضاً كانت بتحقيق وتعليق الهراس نفسه .

ومهما يكن فإن هذا الكتاب يعد من أعظم ما كتب فى الفقه الإسلامى وقد ذكره السابقون وأشاروا إليه وإلى قدره العظيم .

فقد ذكره ابن النديم فى مؤلفات أبى عبيـد وكذلك القفطى حيث يقول : وكتابه فى الأموال من أحسن ما صنف فى الفقه وأجوده(٢) .

لكن البغدادى يرى غير هذا حيث يقول : وأضعف كتبه كتاب الأموال يجىء إلى باب فيه ثلاثون حديثاً وخمسون أصلا عن النبى — صلى

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٩

(٢) انباه الرواة ٣/١٥

الله عليه وسلم — فيجيء بحدث بحديثين يجمعهما من حديث الشام ويتكلم في ألفاظهما(١) .

ومن الواضح أن هذا النقد يأتي من جانب قلة الحديث في الأبواب وربما كان عند أبي عبيدة في هذا أن الكتاب يقصد به الفقه أكثر مما يقصد به الحفظ والرواية فهو ليس سنداً أو مرجعاً من مراجع الحديث .

أما الكلام في ألفاظ الحديث فتلك صناعة أبي عبيد وبضاعته وقد امتدت آثارها إلى كل كتبه في الفقه والحديث وبذلك كان كتاب الأموال ككل كتب أبي عبيد زاخراً بالتفسيرات اللغوية معتمداً على ما لصاحبه من ثقافة لغوية واسعة في توضيح تلك النصوص البالغة في عروبتها وفصاحتها .

وقد ذكر ابن خير هذا الكتاب وروايته له تحت عنوان كتب الفقه على مذهب مالك بن أنس رحمه الله(٢) ، وكأنه كان يعتقد بأن أبا عبيد من تلاميذ المدرسة المالكيه وفي هذا إشارة إلى ماسبق أن ذكرناه من تنازع المذاهب الفقهية حول أبي عبيد .

وقد عرف خبراء الاقتصاد في عصرنا لهذا الكتاب أهميته وقدره وانتفع به الباحثون في الاقتصاد الإسلامي أيما انتفاع .

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/٤١٣

(٢) انظر فهرست مارواه عن شيوخه ص ٢٤٠ و ص ٢٤٨

٢ — كتاب الحجر والتفليس :

وقد ذكره صاحب الفهرست فى مصنفات أبى عبيد(١) وتبعه فى هذا القفطى فى إنباه الرواة(٢) ، وكذلك فعل ياقوت فى معجم الأدباء(٣) ويتضح موضوعه من أسمه ، ولم نطلع على نص يثبت وجوده فهو من الكتب الكثيرة المفقودة .

٣ — كتاب الحيض :

وهو من الكتب الفقهيه التى ذكرها ابن النديم فى مصنفات أبى عبيد وكذلك ذكرها القفطى ، وذكر حاجى خليفة(٤) أبا عبيد بين من ألفوا كتبا بهذا الاسم .

٤ — كتاب الطهارة :

وموضوعه يتضح من تسميته وقد ذكره ابن النديم(٥) والقفطى(٦) وغيرهما .

وفى تاريخ بغداد يقول عبد الغنى بن سعيد الحافظ أن فى كتاب الطهاره لأبى عبيد القاسم بن سلام حديثين ما حدث بهما غير أبى عبيد ولا عن

---

(١) الفهرست ص ١١٣
(٢) انباه الرواه ٣/٢٢
(٣) معجم الأباء ١٦/٢٦٠
(٤) كشف الظنون ٢/٢٧٤
(٥) الفهرست ١١٣
(٦) انباه الرواة ٣/٢٢

أبي عبيد غير محمد بن المروزى أحدهما حديث شعبه عن عمرو ابن وهب والآخر حديث عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبرى حدث به يحي القطان عن عبيد الله وحدث به الناس عن يحي القطان عن ابن عجلان[١] وقد ذكر البغدادى هذين الحديثين كما مر .

ولم نر فيما تحت أيدينا شيئاً يوضح لنا مصير هذا الكتاب ويبين لنا موقفه ومستقره .

٥ — كتاب أدب القاضى :

وهو من مؤلفات أبى عبيد التى أحصاها ابن النديم[٢] ولم يذكر لنا شيئا عن طبيعتها أو مصيرها وكذلك فعل سائر المؤرخين لأبى عبيد كالقفطى وغيره[٣] .

وكم كنا نود معرفة شيء عن هذا الكتاب الذى عمل مؤلفه بالقضاء ثمانى عشرة سنة كما يذكر المؤرخون[٤] ولكنه يعد حتى الآن وحسب علمى فى كتب أبى عبيد المفقودة ، وقد ذكر حاجى خليفه أنه على مذهب الإمام الشافعى (٥) .

---

(١) تاريخ بغداد ٤١٣/١٢

(٢) الفهرست /١١٣

(٣) انباه الرواة ٢٢/٣

(٤) وفيات الأعيان ٢٢٥/٣

(٥) فقد ذكره باسم : أدب القاضى على مذهب الشافعى ٧٣/١

٦ — كتاب الأيمان والنذور :

ذكره ابن النديم ، والقفطى وغيرهما وموضوعه يتضح من اسمه ولكننا لا نعرف شيئا عن مصيره

* * *

وإذا كانت الكتب السابقة تمثل — كما هو واضح الجانب الفقهى من ثقافة أبى عبيد فإن من كتبه ما هو متصل أيضاً بالجانب العقـــدى والأخلاقى ومن أهمها :

١ — كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته :

ذكره بروكلمان وأشار إلى وجوده بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٣٧ ، ١١٦ ، ٤[١] .

ومع أنه لم يهيأ لنا الاطلاع عليه فإنه يبدو لنا أنه يتصل بأصول الدين والجانب العقدى فيه .

وربما سوغ لنا هذا أن نشير هنا الى صفاء عقيدة أبى عبيد ونقائها من كل ما كان يشوب مجتمعـــه من أفكار وآراء لا يرضى عنها الإسلام وربما توضح لنا هذه الروايه شيئاً من ذلك ، وهى مما ذكره الزبيدى فى طبقاته :

« قال مروان سمعت الدورى يقول : سمعت أبا عبيد وذاكروه عن رجل من أهل السنة يقول : هـــذه الأحاديث التى تروى فى الرؤية ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى ١٥٨/٢

والكرسى ، موضع القدمين ، وضحك ربنا من قنوط عباده ، وإن جهنم لتمتلىء . . . وأشباه هذه الأحاديث (حق) فقالوا إن فلانا يقول يقع فى قلوبنا أن هذه الأحاديث حق قال أبو عبيد : ضعفتم عندى أمره هـــذه حق لاشك فيها رواها الثقاة بعضهم عن بعض إلا أنا إذا سئلنا عن تفسير هذه الأحاديث لم نفسرها ولم يدرك أحد تفسيرها(١) .

وتدل هذه الرواية على مذهب أبى عبيد ورأيه الذى تبدو فيه روح السلف واضحة ظاهرة ، فهو إذن سلفى العقيدة ، ويؤكد الزبيدى هـذه الرواية برواية أخرى فيقول :

« قال أبو سعيد الأعرابى : سمعت عباسا الدورى يقول : سمعت أبا عبيد يقول : عاشرت الناس وكلمت أهل الكلام فما رأيت قوماً أضعف ولا أوسخ ، ولا أقذر ، ولا أضعف حجة ، ولا أحمق من الرافضة ولقد وليت قضاء الثغر فأخرجت منهم ثلاثة جهميين ورافضا أو رافضـــين وجهميا وقلت : مثلكم لا يجاور الثغور(٢) » .

ولعل هذين النصين مما ورد فى كتاب الإيمان المذكور وستظل هذه القضية فى دائرة الافتراض حتى يوفق الله من يخرج هذا الكتاب إلى عالم النشر والانتشار .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ص٢١٨

(٢) المرجع السابق ٢١٨

٢ — كتاب آداب الإسلام :

وقد ذكر بروكلمان أن العلوى قد نقل فى كتابه ألف ياء ٢/٢٧ نصوصا من كتاب لأبى عبيد فى آداب الإسلام ولم يذكر هو ولا غيره — فيما اطلعت عليه — شيئاً آخر عن هذا الكتاب ، والنص الذى أشار إليه بروكلمان هو « تقدم قوس قزح كره بعض العلماء أن يقال كذلك خرج القاسم بن سلام فى كتاب آداب الإسلام له قال : لا تقولوا قوس قزح فإن قزح شيطان ولكن قولو القوس (١) .

٣ — كتاب مواعظ الأنبياء :

يقول ابن خير : كتاب مواعظ الأنبياء لأبى عبيد حدثنى به أبو محمد (بن عتاب) عن أبيه رحمهما الله . . . نا على بن عبد العزيز عن أبى عبيد مؤلفه(٢) .

ولم أر — فيما اطلعت عليه — أحد يذكر أن لأبى عبيد كتابا بهذا الاسم إلا أن بروكلمان قد ذكر فيما نسب لأبى عبيد كتابا باسم : كتاب الخطيب والموعظ (ليبزج أول ١٥٨(٣)) فهل هما كتاب واحد ؟ الله أعلم .

تلك أهم الكتب التى ذكرها المؤرخون لأبى عبيد فى الجانب الفقهى والعقدى والخلقى ، وهى كلها لا تخرج عما سبق ذكره من كونها ذات طابع لغوى يعطيها حسنا ويزيد من قيمتها وفائدتها يقول القفطى :

---

(١) كتاب ألف با ١/٢٨

(٢) فهرست ما رواه عن شيوخه ٢٩١

(٣) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٩

« وأما كتبه فى الفقه فإنه عمد إلى مذهب مالك والشافعى فتقلد أكثر ذلك وأتى بشواهد، وجمعه من حديثه ورواياته، واحتج فيها باللغة والنحو فحسنها بذلك »[١] .

وأبو عبيد فى هذا كله هو الفقيه اللغوى أو اللغوى الفقيه ومن هنا كان تميزه على أقرانه كما سبق ذكره .

ثالثاً : كتب التاريخ والأنساب :

كان أبو عبيد كما سبقت الإشارة إليه لغوياً صاحب تاريخ وأنساب وأخبار .

وهناك نقول كثيرة يحتج أصحابها بأبى عبيد فى تلك الجوانب التاريخية والأخبارية والنسبية .

بل إنه ليمكننا الاستطراد هنا إلى القول بأن أبا عبيد كان أيضا من أصحاب المعارف الجغرافية، كما يذكر كراتشكوفسكى .

وقد ذكر المؤرخون لأبى عبيد فى هذا عدة كتب لكنها جميعا لم تر النور بعد ولا يدرى أحد شيئا عنها إلا نتفا قليلة تذكر فى بعض الكتب أو الموسوعات الأدبية والعلمية .

ومن أهم هذه الكتب :

١ — كتاب الأحداث :

ويدل إسمه على أنه فى التاريخ وقد ذكره صاحب الفهرست[٢] والقفطى[٣] .

---

(١) إنباه الرواة ٣/١٥ .

(٢) الفهرست ١١٢ .

(٣) إنباه الرواه ٣/٢٢ .

٢ — كتاب النسب :

ويتضح من إسمه أنه فى علم الأنساب وهو علم كان سائغا عند العرب فى تلك الفترة وكان له علماؤه ورجاله ولم يكن موضوعه مقصورا على أنساب الناس بل كان يتعدى ذلك إلى أنساب الحيوانات التى عنى العرب بها كالخيل والإبل .

ولقد ذكر صاحب تاج العروس فى مقدمته بعض الكتب منسوبة إلى أبى عبيد وكان منها كتابان هما : كتاب أنساب العرب وكتاب أنساب الخيل ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن الوحدة أو التعدد فيما نسب إلى أبى عبيد من هاتين التسميتين : كتاب النسب وكتاب أنساب العرب .

وقد ذكر التسميه الأولى ابن النديم والقفطى كما ذكرها أيضاً ابن خير فى فهرسته فقال : كتاب النسب لأبى عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حدثنى به شيخنا أبو عبد الله . . . عن أبى الحسن على بن عبد العزيز عن أبى عبيد وأسنده أيضا بروايات أخرى(١) .

والظاهر أنه قد جرت على هذا الكتاب بعد ذلك دورة الزمان فأخفته فيما أخفت من ذخائر أبى عبيد وجواهره .

٣ — مقاتل الفرسان :

ذكره بروكلمان ضمن الكتب التى نقل الناس منها وأشار إلى أن الناقل هنا هو السيوطى فى المزهر .

---

(١) فهرسة مارواه عن شيوخه ٢٣٩ .

وبمراجعة المزهر ١/٤٣٤ وجدت هذا النص :

« وفى مقاتل الفرسان لأبى عبيدة : السهر فى الخير والشر ، والأرق لا يكون إلا فى المكروه وحده » .

فهل النص والكتاب لأبى عبيد أو لأستاذه أبى عبيدة ؟ إن أحداً ممن ترجموا لأبى عبيد لم يذكر له كتابا بهذا الاسم فهل نجده فى ترجمة أبى عبيدة ؟

لقد ذكر السيوطى أن لأبى عبيدة كتابا باسم طبقات الفرسان(١) فهل ثمة علاقة بين هذا الكتاب والكتاب السابق ؟ إن القضيه ما تزال فى حاجة إلى مزيد من التحقيق ، ولقد وجدت فى المزهر نصا آخر منسوبا إلى أبى عبيد فى مقاتل الفرسان هو : عبد الله بن الصمة أخو دريد بن الصمة قال أبو عبيد فى مقاتل الفرسان : « وكان له ثلاثة أسماء وثلاث كنى وكان اسمه عبد الله ومعبدا وخالدا ويكنى أبا فرعان وأبا أوفى وأبا ذفافة . وهذا النص الأخير يؤكد نسبة الكتاب إلى أبى عبيد فلعل النص الآخر كذلك وزيدت التاء فحدث اللبس .

٤ — كتاب فضائل الفرس :

ذكره ونسبه إليه « بروكلمان » وذكر أن صبح الأعشى قد نقل عنه وأشار إلى موطن هذا النقل(٢) وبمراجعة صبح الأعشى رأيناه يتحدث عن مدينة دمشق فيقول ضمن هذا الحديث « وفى كتاب فضائل الفرس

---

(١) بغية الوعاة ٢/٢٩٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٩ .

(بضم الفاء وسكون الراء) لأبي عبيد أن بيوراسب ملك الفرس بناها »(١) ويبدو من هذا النص أنه كان يعالج فى هذا الكتاب الذى لا نعلم شيئا آخر عنه بعض تاريخ الفرس .

رابعا : كتب الحديث :

كان أبو عبيد — كما سبق — من كبار الحفاظ وأئمة علوم الحديث والسنة ، وقد ذكره علماء هذا الفن وأثنوا على علمه ورواياته إلا أننا لم نعثر له على كتاب أو مؤلف خاص برواية الحديث مجرداً عن الفقه واللغة وغيرهما على نحو مسند الإمام أحمد الذى كان معاصراً له .

ذلك أن أبا عبيد كان قد شغل بالجانب اللغوى فى الأحاديث والآثار، وأخذ على نفسه أن يقدم فيه عملا ينفع الله به المسلمين ، ويكون نبراسا لكل العاملين فى هذا الميدان .

وقد وفقه الله فأخرج كتاب غريب الحديث فيما يقرب من أربعين سنة كما سيأتى .

وإذا كان بعض المؤرخين يطلقون أحيانا مصطلح المسند على هذا الكتاب ويدونه من بين كتب إسناد الحديث ورواياته فإننا نميل إلى وضعه بين كتب اللغة أو لغة الحديث النبوى ناظرين فى ذلك إلى طبيعة الكتاب نفسه تلك التى لمحها الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث فى تقديرهم لعمل أبى عبيد كما سنذكره إن شاء الله .

---

(١) صبح الأعشى ٤/٩٢ .

وإلى أن يأتى الكلام عن غريب الحديث نحب أن نشير إلى بعض من ذكروا أن لأبى عبيد مسنداً .

لقد فعل هذا حاجى خليفة فذكر « مسند القاسم بن سلام البغدادى وهو مشتمل على الغريب »(١) .

وقد نبه صاحب تذكرة النوادر إلى أن هذا المسند يقصد به غريب الحديث حيث يقول متعرضا لاختلاف أسماء الكتب : « وغريب الحديث لأبى عبيد كان يسمى أيضا بالمسند كما تقدم »(٢) .

خامسا : كتب الأدب :

لقد كان أبو عبيد أديبا مؤدبا راويه للآداب مؤلفا فيها على طريقه عصره التى يصعب الفصل فيها بين المؤلفات الأدبية الخاصة وغيرها من كتب اللغة والمعارف العامة ، وقد وردت عن أبى عبيد بعض عبارات تدل على وعيه وتذوقه لما فى اللغة من ملامح الفن والجمال .

من ذلك ماروواه أبو حاتم قال : قال أبو عبيد : مثل الألفاظ الشريفة ، والمعانى الطريفة ، مثل القلائد اللائحة ، فى الترائب الواضحة(٣) .

هذا وقد نسب إلى أبى عبيد من تلك الكتب الأدبية ما يأتى :

---

(١) كشف الظنون ٢/٤٣٤ .

(٢) تذكرة النوادر ٩٣ .

(٣) تاريخ بغداد ١٢/٤١٠ .

معانى الشعر :

وقد نسبه إلى أبى عبيد ، وأشار إليه بروكلمان ضمن كتبه المنقول عنها ولم يذكر لنا شيئا عن فقده أو وجوده وإن كان قد أرشدنا إلى النص المنقول عنه فى طبقات الشافعية لابن السبكى(١)

ولعل قراءتنا لهذا النص توضح لنا شيئا عن طبيعة هذا الكتاب .

يقول ابن السبكى :

قال أبو عبيد فى قول الشاعر :

فإن أدع اللواتى من أناس أضاعوهن لا أدع اللذينا

الذى هنا لاصلة لها والمعنى إن أدع ذكر النساء لاأدع ذكر الرجال
قلت : هذا البيت للكميت وهو شاهد ذكر الموصول بغير صلة لقرينة .

قال أبو عبيد فى معنى قول الشماخ :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

إن فيهما تقديما وتأخيرا والتقدير فى الأول : وماء كالورق اللجين عليه الطير ، واللجين الذى قد ضرب حتى تلجن ، والتقدير فى الثانى مقام الذئب اللعين كالرجل انتهى ذكره فى كتابه فى معانى الشعر)(٢) .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢ / ١٥٩
(٢) طبقات الشافعية ١ / ١٧٣

وهكذا يبدو لنا أن موضوع هذا الكتاب كما يظهر من هذا النص كان لغويا أدبيا أو قل كان أدبيا بالمعنى الواسع للأدب .

٢ — كتاب الشعراء :

ذكره ابن النديم[1] والقفطى[2] وغيرهما ممن نقل عن الفهرست ولم يذكر أحد ممن أطلعت على ترجماتهم شيئا عن موضوع هـذا الكتاب والذى نرجحه أنه ربما كان على نسق كتاب محمد بن سلام الجمحى المعروف بطبقات فحول الشعراء وقد كان أبو عبيد وابن سلام متعاصرين وهذا مجرد احتمال إلى أن نتمكن من العثور على هذا الكتاب أو على مايوضح طبيعته من أوصاف أو نصوص .

٣ — كتاب الأمثال :

وقد نسبه إليه صاحب الفهرست[3] والقفطى[4] ، وقد رواه ابن خير وذكر إسناد رواياته فى فهرسته كما ذكر ذلك بالنسبة لشرحه المعروف بفصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى[5] .

وقد ذكره « بروكلمان » قال : ويسمى المجلة كما ذكر ذلك صاحب الخزانة ٢ : ١١س٢ والظاهر أن بروكلمان قد أتى فى هذه التسمية من ناحية

---

(١) الفهرست ١١٢
(٢) انباه الرواه ٣ / ٢٢
(٣) الفهرست ١١٢
(٤) إنباه الرواة ٣ / ٢٢
(٥) فهرسة ماروا عن شيوخه ص ٣٣٩ ، ٣٤٤

أن لأبى عبيدة معمر بن المثنى كتابا فى الأمثال ذكره ابن خير وأشار إلى تسميته بالجلة(١) .

ويوضح لنا « بروكلمان» بعد ذلك أن هذا الكتاب مازال موجوداً فهو يوجد برواية ابن خالوية المتوفى سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م فى كوبريلى ١٢١٩ كما يوجد أيضاً فى باريس أول ٣٩٦٩ والموصل ٢٠٦ والمتحف البريطانى ٩٩٥ وفيض الله ١٥٧٨ ورامبور .

ويوجد أيضا برواية أبى الحسن على بن عبد العزيز — أنظر فهرست ابن النديم ٧٢ — ما نشسر ٧٧٣

ومنه مخطوط عن نسخة بخط المؤلف مع زيادات أخرى فى اسكوريال ثانى ١٧٥٧

ويوجد مختصر منه فى القاهرة أول ٤ : ٣٢١ وقد نشر هذا المختصر مرتبا على حروف الهجاء ضمن كتاب التحفة البهية فى استانبول سنة ١٣٠٢هـ ص ٢ : ١٦ ، ونشره برتو فى جوتنجن ١٨٣٦

... ولكن هذا الكتاب متأخر كثيراً عن كتاب الأمثال لأبى عبيد . .

ثم يذكر بروكلمان أن البكرى قد شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد بكتاب عنوانه : فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال ومنه مخطوط فى اسكوريال ثانى ٥٢٦ كما يوجد مخطوط منه فى مكتبة الفاتح ٤٠١٤ (نقلا عن رتر) ومنه مخطوط آخر فى لا للى(٢) ١٧٩٥

---

(١) أنظر فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٤١

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٧ وما بعدها .

وقد جاء فى فهرس المخطوطات ص٧٧ : أمثال العرب: تأليف الإمام أبى عبيد القاسم بن سلام البغدادى المتوفى سنة ٢٢٤هـ وتلك تسمية أخرى للكتاب كما يظن ، وقد سماه بعضهم أيضا بالأمثال السائرة ، والمعروف أن كل هذه التسميات إنما هى لكتاب واحد .

وينفى الدكتور عبد المجيد عابدين أن تكون تلك الرسالة المنشورة فى كتاب التحفة البهية المطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٢هـ والتى تشغل من ص ٢ إلى ص١٦ والمحسوبة على ب٨ مثلا مرتبة على حسب حروف المعجم . والتى تتوالى فيها عبارات الأمثال دون شرح أو تعليق — ينفى الدكتور نسبتها إلى أبى عبيد مؤكداً أن لأبى عبيد كتابا واحداً فى الأمثال .

وقد وصل إلينا هذا الكتاب كما وصل إلينا شرحه لأبى عبيد البكرى . يقول الدكتور :

(بل وصل إلينا كتاب الأمثال الذى عرفه القدماء لأبى عبيد وله نسخ مصورة لاتزال تنتظر من ينشرها ، منها نسخة مصورة من اليمن وهى مكتوبة فى القرن الخامس ، وأخرى أحدث منها بقليل ، مصورة من مكتبة فيض الله أفندى بالآستانة رقم ١٥٧٨

وفيما يلى نورد جزءا من مقدمة الكتاب نقلا عن النسخة الأخيرة : « هذا كتاب الأمثال ، وهى حكمة العرب فى الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ به ما حاولت من حاجاتها فى المنطق بكناية غير تصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه ، وقد ألفناها فى كتابنا هذا على منازلها ولخصنا صنوفها ، وذكرنا المواضع التى يتكلم بها فيها ، ونضرب عندها واسندناها إلى علمائها ، واستشهدنا بنوادر الشعر عليها أو على ما أمكن منها ، وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ما روينا من الأحاديث المأثورة عن النبى

ﷺ أنه تمدح بها ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف ، وقد ذكرنا ذلك ليكون حجة لمذهبنا »(١) .

ولهذه المقدمة أهمية كبرى حيث إننا لم نعثر على أية مقدمة لأى كتاب من كتب أبى عبيد وإنها لتدل على عقلية منظمة ، وتفكير هادىء منمق ، وأسلوب علمى وأدبى رائع ، فقد أوجز الشيخ فى تلك الكلمة القصيرة موضوعه ، وغرضه ، ومنهجه ، والأسباب التى دفعته إلى هذا التأليف .

وإن هذا ليؤكد لنا ماسبق أن ذكرناه فى غير هذا المكان من أن علماء العربية كانوا على منهج صائب ، ونهج مستقيم ، وأننا عندما نضع أيدينا على مقدمات كتبهم ، ومافى ثناياها ، سنقف على علم المنهجة أوالمناهج العربى ، وسنرى فيه مايغنى ويثرى ويوضح لنا قدر بضاعتنا التى ترد إلينا ، فتمير أهلنا ، ونزداد فضلا وتيسيراً .

وقد أخذ أبو عبيد فى هذا الكتاب عن عدد كبير من علماء اللغة والآداب منهم من كان صاحب تأليف فى الأمثال مثل المفضل الضبى المتوفى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وكتابه فى الأمثال مطبوع فى الآستانة وفى القاهرة وأبى الفيد مؤرج السدوسى العجلى المتوفى سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م وكتابه ما زال مخطوطا فى مكتبة الأسكوريال تحت رقم ١٧٠٥ ، وأبى عبيده معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م وكتابه ما يزال مخطوطا ، وأبى زيد الأنصارى المتوفى سنه ٢١٥هـ/ ٨٣٠م وقد أشار إلى كتابه هذا القدماء ولكن لا نعرف شيئا عنه ، والأصمعى المتوفى سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م .

ويقول محققا كتاب فصل المقال : ولعل معظم ما نقله أبو عبيد القاسم فى أمثاله كان عن أستاذه الأصمعى ، ويذكر القدماء أنه صنف كتابا فى

---

(١) الأمثال فى النثر العربى القديم ١٩٣ — ١٩٤

الأمثال ولكنه لم يصل إلينا ، ومن الممكن أن تجمع جزءا غير قليل من أمثال الأصمعى مما رواه أبو عبيد القاسم فى كتابه ، وقد أشار البكرى إلى كتاب الأصمعى هذا (انظر ص ٤٢ ، ٢١٩)(١) .

كما أخذ أبو عبيد عن أساتذته الآخرين الذين لم تذكر لهم كتب فى الأمثال مثل الكسائى المتوفى ١٨٩هـ / ٨٠٥م ، وأبى زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م ، وعلى بن المبارك الأحمر المتوفى سنة ١٩٤هـ /٨٠٩ — ٨١٠م ، والأموى المتوفى سنة ١٩٤هـ/٨٠٩ — ٨١٠م، وهشام الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م .

وهؤلاء جميعا يعدون من أكثر المصادر التى اعتمد عليها أبو عبيد فى كتبه وخاصة الكتب اللغوية والأدبية وكان أخذه عنهم بأفضل الطرق التى يعتمدها المنهج العلمى وترضاها أصول الروايا وليس بالانتزاع أو التجميع على نحو ما يشير إليه بعضهم أحيانا .

وقد عنى العلماء والأدباء بهذا الكتاب عناية حظيت بها كل كتب أبى عبيد .

فقد رواه عنه تلاميذه وفى مقدمتهم على بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ، وثابت بن أبى ثابت وقد ذكر على بن عبد العزيز أنه قرأه على أبى محمد سلمة بن عاصم النحوى صاحب الفراء فزاده فيها أشياء ألحقها فى حواشى الكتاب ، كما أنه قرأه أيضا على أبى عبد الله الزبير بن بكار وهو قاضى مكة وكتب ما زاده فيه ونسبه إليه .

ومن قرأ الكتاب أيضا وأضاف إليه بعض الحواشى بخطه الإمام اللغوى أبو بكر محمد بن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٧هـ أو / ٣٢٨/ ٩٤٠م

---

(١) مقدمة تحقيق فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال ص ز

وقد رواه أيضا ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ هـ ٩٥٨ م وطاهر بن عبد العزيز القرطبى المتوفى سنة ٣٠٥ هـ ٩١٧ م وتلقاه أبو على القالى عن ابن درستويه وكذلك أخذ عن القالى أبو عمر أحمد بن أبى الحباب وغيرهما وتلقاه عن طاهر قاسم بن سعدان ، وأبو بكر بن القوطية وغيرهما .

وقد حمل الكتاب إلى الأندلس وروى بها حتى بلغ أبا عبيد البكرى ويقال إن أول من أدخل هذا الكتاب إلى الأندلس هو وهب بن نافع — ٢٧٣ هـ(١) .

وقد ذكر البكرى فى أول شرحه سلسله روايته لكتاب أبى عبيد(٢) .

كما ذكر ابن خير عدة طرق لروايته لهذا الكتاب(٣) .

وقد ظهرت حول هذا الكتاب عدة دراسات ومؤلفات من أهمها :

١ — كتاب زيادات أمثال أبى عبيد لمحمد بن أبى جعفر المنذرى الخراسانى اللغوى العدل أبى الفضل .

ذكره ياقوت(٤) ، وقد شار إليه الأزهرى فقال : « لأبى عبيد كتاب الأمثال ، قرأته على أبى الفضل المنذرى ، وذكر أنه عرضه على أبى الهيثم الرازى ، وزاد أبو الفضل فى هذا الكتاب من فوائده أضعاف الأصل قسمعنا الكتاب بزياداته »(٥) .

---

(١) فصل المقال : المقدمة ص هـ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٥

(٣) انظر الفهرسة ص ٣٣٩ وما بعدها

(٤) إنباه الرواة حاشية ص ٧١

(٥) تهذيب اللغة جـ ١ ص ٢٠

٢ — شرح أمثال أبى عبيد لمحمد بن آدم بن كمال أبى المظفر الهروى الأستاذ الكامل الإمام فى الأدب والمعانى مقدم زمانه فى شرح الأبيات والألفاظ والأمثال ... توفى سنة ٤١٤هـ(١) .

وقد ذكر هذا الشرح صاحب كشف الظنون(٢) أيضا .

٣ — شرح أبيات أمثال أبى عبيد لعبد الله بن أحمد بن الحسين الشامانى المتوفى سنة ٤٧٥(٣) .

٤ — فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى الأونبى المتوفى سنة ٤٨٧ هـ وهو مطبوع مشهور وقد قام بتحقيقه الدكتوران : عبد المجيد عابدين وإحسان عباس .

ويقول البكرى فى مقدمته بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصفوة الله من رسله :

« أما بعد فإنى تصفحت كتاب الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام فرأيته قد أغفل تفسير كثير من تلك الأمثال ، فجاء بها مهملة ، وأعرض أيضا عن ذكر كثير من أخبارها فأوردها مرسلة فذكرت من تلك المعانى ما أشكل ، ووصلت من تلك الأمثال بأخبارها ما فصل ، وبينت ما أهمل ونبهت على ما ربما أجمل إلى أبيات كثيرة غير منسوبة نسبتها ، وأمثال جمة غير مذكورة ذكرتها ، وألفاظ عدة من الغريب فسرتها وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) إنباه الرواه جـ ٣ ص ١٢٦
(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ١٥٠
(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووى ص ٢٧٨

وقد رتبتها على عشرين بابا يتفرع منها أبواب فى محالها(١) .

وقد كان للبكرى على الهروى نقود أهمها :

١ — الإهمال فى نسبة الشعر إلى قائله أو الجهل بذلك القائل .

ومن ذلك أن يقول أبو عبيد عند رواية بيت شهور لأبى خراش الهذلى : يقول الشاعر فى سالف الدهر ص ٢١١ من هذا الكتاب . ومنها أيضا قوله عندما روى البيت :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه
إذا ما هــو استغنى ويبعده الفقر

« وهذا البيت يقول بعضهم انه لعثمان بن عفان » وعند هذا الموقف يغضب البكرى فيقول معلقا : كيف جهل أبو عبيدأن هذا البيتمن شعر الأبيرد اليربوعى وهو أشهر من أن يجهله أحد فكيف يجهله أحد الجلة من العلماء بفنون العلم ص ٣٣٥ »(٢) .

٢ — الخطأ فى فهم بعض الأمثال .

٣ — الإحالة إلى كتاب غريب الحديث والغريب المصنف .

٤ — التخرج من ذكر بعض الأسماء أو رواية بعض القصص(٣) .

على أن البكرى كان كما يقول المحققان أحيانا ديتكلم فى بعض التخريجات ويأخذ على أبى عبيد ما يقع فيه غيره من العلماء » .

كما أن مما يمكن أن يلام البكرى عليه أنه أغفل كثيرا من أمثال أبى عبيد فلم يذكر منها إلا ما ناسب الشرح (ونحسب أن ما حذفه من الامثال من

---

(١) فصل المقال ص ٣

(٢) فضل المقال : مقدمة المحققين ص ن ، س

(٣) انظر أمثلة ذلك فى المرجع السابق ص س ، ع

أصل أبى عبيد أضعاف أضعاف ما زاده إليه أثناء الشرح لأنه كان فى بعض الاحيان يغفل أبوابا كاملة)(١) .

هذا وقد ذكروا أن كتاب أبى عبيد لم يكن يضم كثيرا من الامثال وأرجع بعضهم هذه القلة إلى ما التزمه أبو عبيد من نظام التبويب فلم يستطع أن يذكر من الأمثال إلا ما دخل تحت تلك الأبواب أو الفصول والحق أنى لا أسلم مطلقا بتلك العلة وأرجح أن يكون السبب فى ذلك راجعا إلى ما عرف عن أبى عبيد من الدقة ، والتحرج فى الرواية ، والمثالية الخلقية فيما يذكر ويروى، .

وعلى هذا فإن القلة هنا إنما هى فى العدد فقط أما الكيف فإنه باق على ماله من قدر كبير باعتراف أهل العلم والفضل من العلماء والمؤرخين .

ومن النصوص التى تشير إلى قلة عدد أمثال ابى عبيد ما ذكره صاحب الإنباه :

(وقال أبو عبيدة : دفعت إلى جعفر بن سليمان أمثالا فى الرقاع قيل لى : كم كانت ؟ قلت : أربعة عشر ألف مثل .. فانظر الى هذه السعة فى الرواية وبين ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام فإنه لما اجتهد جاء بألف مثل)(٢) .

وانى لأعجب لصاحب هذه الرواية وأتساءل كيف يتصور — إذا كان يذكر هذا على سبيل العقد — أن يكون أبو عبيد القاسم قد قلل من عدد أمثاله على سبيل العجز أو التقصير ؟ وهما محالان لأن أبا عبيدة كان من شيوخه وممن روى عنه بالإضافة إلى غيره من الشيوخ والأساتذة الآخرين ولو أراد القاسم أن يحوز كما كبيرا لما وجد حرجا فى رواية ما ذكره أساتذته وشيوخه ،

---

(١) فصل المقال : مقدمة التحقيق ص ٤

(٢) إنباه الرواة ٣ / ٢٨٤

على أننا — من ناحية أخرى — نشك فيما ذكرته هذه الرواية من ذلك العدد إذ كيف يصح هذا مع ماقيل من أن المختصر المطبوع يضم وحده كما سبق ذكره ٨٢٠ مثلا . ؟

إن أباعبيد كان رائداً حقاً ، فى هذا الكتاب ولكن الحكم الحقيقى على عمله فيه محال أن يتم إلا بعد خروج هذا الكتاب إلى النور وانتشاره وتيسير دراسته للناس .

سادساً : كتب اللغة :

كان أبو عبيد لغوياً مشهوراً وراوية من أكبر رواة اللغة وقد أودع ثمرات فكره وعقله فى كل الكتب التى صنفها فى مختلف العلوم والفنون وقد كان حريصا فى كل ما كتب وألف وفى كل ماوضع على إشعار قارئه بأنه لغوى يعرف للغة قدرها وللعربية قيمتها ، ومن ثم فإنك لاتكاد تقرأ له كتابا إلا وتحس بتلك السمة اللغوية التى تدل على ذكاء أبى عبيد وما يتمتع به من قدرة لغوية فائقة .

وإن قارىء أبى عبيد أو دارسه يستطيع — من هذا الملحظ — أن يصف كل ما ألفه بأنه لغوى ، وإن هذا الجانب لجدير بدراسة خاصة ، تتناول تلك السمة اللغوية وتبرز كل جوانبها فيما بقى من مؤلفات هذا الشيخ الجليل .

ومع هذا فقد كان لأبى عبيد جهود لغوية بحتة أو لغوية متصلة ببعض مصادر اللغة كالقرآن الكريم والحديث الشريف أو بعض مظاهرها اللهجية أو الدلالية وغيرها .

وهى جهود عرفها له معاصروه وأفاد منها الذين جاءوا بعده ومازالت إلى اليوم — على الرغم من أنها لم تنل حظها مطلقا من التحقيق

والدراسة — منهلا عذبا لكل وارد من أبناء العربية الحريصين عليها .

أفتح أى معجم من المعاجم أو أى كتاب من كتب اللغة أو أى تفسير للقرآن الكريم أو الحديث الشريف فإنك ستجد دائما أمامك أبا عبيد راويا محققا أو موفقا .

ولقد بدا لى يوما أن أجمع مافى المزهر للسيوطى من أقوال أبى عبيد والنقول عنه فرأيت نفسى أمام قـــدر هائل من تلك الأقوال والنقول تشعرك بخطورة وعظمة هذا العالم الذى لم ير أهم كتبه النور بعد ، ولم يعرف العالم إلى اليوم شيئا عن أماكن أو معتقلات هذه الكتب النافعة المفيدة .

ولما كنت أعلم أننى لا أستطيع أن أبرز الشخصية اللغوية لأبى عبيد من خلال كتبه التى اطلعت عليها ، فى هذه العجالة فقد رأيت أن أخصص لبعضها وبخاصة للغريب المصنف وغريب الحديث دراستين مستقلتين ألم فيهما بما يستحقان من نظر وفحص ، وتعمق وتدقيق ، وأن أقتصر فى هذه العجالة باللمحات الأساسية التى تفصلها تلك الدراسة الخاصة التى أنهيت مسوداتها تقريبا بفضل الله .

وسيرى القارىء بإذن الله أنه لن يفوته بهذا الإنجاز هنا إلا مافى التفصيل والإطناب فى مواقفهما من زيادة التأمل وحلاوة التعمق ، وكثرة التمثيل ، وبلاغة التدليل .

وما أجمل أن يأتى هذا كله بعد الإجمال والتعميم .

لقد نسبت إلى أبى عبيد كتب لغوية كثيرة .

وليسمح لنا القارىء بأن نبدأ بذكر بعض هذه الكتب التى لا تساعدنا المعلومات عنها بالوقوف طويلا عندها ، فهى إما ذاهبة فيما ذهب وإما باقية

منها أسماءها مع نص أخذه عالم منها قبل غيابها ولا نقول ضياعها . وقد يثبت التحقيق العلمى أحيانا أن بعضها ربما كان راجعا إلى بعض آخر منها أو أنه مما جاءته النسبة عن طريق الخطأ أو غفلة النساخ .

ومن هذه الكتب :

١ — كتاب المقصور والممدود :

ذكره صاحب الفهرست[١] فى مؤلفات أبى عبيد وأشار إليه كثيرون كالقفطى[٢] وغيره .

ويرجح هذه النسبة لأبى عبيد ماعرف عن تلك الفترة التى عاش فيها من شيوع التأليف فى هذا الفن الذى هو معنى بجمع الألفاظ التى تدخل فى دائرة ماسموه بالمقصور والممدود .

فقد ألف فيه الفراء وهو أحد أساتذة أبى عبيد وكتابه محقق مطبوع تحت عنوان المنقوص والممدود ، وقد ذكر المحقق سبب تسميته بهذا الإسم مع أن السابقين يطلقون عليه تسمية المقصور والممدود وذلك أنه قفا فيه الأصل[٣] .

وكذلك ينسب للأصمعى ، وللمفضل به سلمة ، وغيرهما كتب بهذه التسمية .

---

(١) الفهرست ١١٢

(٢) إنباء الرواه ٣/٢٢

(٣) انظر : المنقوص والممدود للفراء تحقيق : عبد العزيز الميمنى ص ٦ .

أما من ألفوا بعد أبى عبيد فى هذا الموضوع فهم كثيرون من أشهرهم ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وابن خالويه سنة ٣٧٠ هـ وابن درستوية المتوفى سنة ٣٤٧ وابن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وغيرهم كما يذكر صاحب كشف الظنون (١) .

وقد عثر على بعض هذه الكتب ، وتم طبع بعضها ، لكن أحدا لم يعثر بعد — على حسب علمنا — عن كتاب أبى عبيد ولعل الله يوفق فى العثور عليه .

٢ — كتاب المذكر والمؤنث :

وقد ذكره ابن النديم فى مؤلفات أبى عبيد (٢) والظاهر أن الآخرين من نسبوا إلى أبى عبيد مثل هذا الكتاب قد أخذوا ذلك عن ابن النديم .

وقد ألف فى هذا الفن أيضا كثيرون ذكرهم صاحب كشف الظنون (٣) .

وليس فيهم أحد من أساتذة أبى عبيد مما يوحى إذا صح بأسبقية شيخنا وريادته فى هذا المجال .

وكما لم يعرف شيئا عن كتاب المقصور والممدود فإننا كذلك نجهل كل شيء عن هذا الكتاب الذى نرجو ألا يعد فى كتبه المفقودة .

---

(١) أنظر أسماء هؤلاء المولفين فى كشف الظنون ٣٠١/٢ .

(٢) الفهرست ١١٢ .

(٣) كشف الظنون ٢٩٩/٢ .

٣ — كتاب خلق الإنسان ونعوته :

وقد ذكر هذا الكتاب « بروكلمان »(١) وأشار إلى أنه موجود بمكتبة طبقبو ٢٥٥٥ رقم ١ . والظاهر أن هذا الكتاب يمثل إحدى الرسائل المجموعة فى مجلد واحد فقد علق « بروكلمان » على مكان وجود هذا الكتاب فقال : « حيث يظن أن بقية الرسائل فى هذا المجلد مصنفات مختلفة من عمل المؤلف نفسه ولكن الراجح أنها كلها قسم من كتاب غريب المصنف كما يدل على ذلك الفهرست (٢) » .

ومع أننا لم نر هذا المجلد إلا أننا نستطيع القول بأن من المحتمل أن يكون كتاب خلق الإنسان كتابا مستقلا وليس جزءا من الغريب المصنف الذى يضم فعلا بين كتبه وأبوابه كتابا بهذا العنوان ذلك أن التأليف فى خلق الإنسان ونعوته كان شائعا بين اللغويين فقد نسب إلى أبى مالك عمرو ابن كركرة ، والنضر بن شميل ٢٠٤ وقطرب ٢٠٦ وأبى عمرو الشيبانى ٢٠٦ والمفضل بن سلمة ٢٠٨ وأبى عبيدة ٢١٠ والأصمعى ٢١٣ وأبى زيد الأنصارى ٢١٥ وغيرهم كتب بهذا الإسم كما نسب إلى أبى محمد ثابت بن أبى ثابت وراق أبى عبيد كتاب بهذا الإسم أيضا .

وقد وصلت إلينا بعض هذه الكتب مثل كتاب الأصمعى ، وكتاب ثابت تلميذ أبى عبيد (٣)

ولم يذكر الدكتور حسين نصار أبا عبيد بين المؤلفين للكتب المستقلة بهذا الموضوع وان كان قد ذكره بين من عالجوا هذا الفن فى مصنفاتهم .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٨ .
(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٨ .
(٣) أنظر : المعجم العربى ١٠٠/١٣٠ وما بعدها .

وهكذا يظل الأمر موقوفا حتى يظهر الكتاب السابق المنسوب لأبى عبيد.

٤ — كتاب الأضداد والضد فى اللغة :

ذكره ونسبه إلى أبى عبيد « بروكلمان » وأشار إلى وجوده بمكتبة عاشرا فندى تحت رقم ٨٧٤ السليمانية أسطنبول (١).

ولم أر فيما أطلعت عليه من تراجم أبى عبيد من نسب إليه كتابا فى الأضداد وإن كان أبو عبيد قد تناول هذه الظاهرة فى غريبه المصنف، وأن هناك من نقل عنه من مؤلفى الأضداد الذين جاءوا بعده .

فهناك فى الغريب المصنف باب للأضداد أو كتاب كما جاء فى نسخة أخرى (٢) .

وفى كتاب ابن الأنبارى وابن السكيت فى الأضداد بعض نقول باسم أبى عبيد فهل هى من ذلك الكتاب الخاص بالأضداد أو أنها من باب الأضداد فى الغريب المصنف ؟

لقد جاء نقل ابن الأنبارى (٣) فى حديثه عن كلمات منها : القرء ، والنبل والمغازة ، والملدوغ ، ومقتو ، ومثليهم . . الخ .

ولم أجد فى باب الأضداد فى الغريب المصنف أى كلام عنه سوى لفظ الإقرار . ولعل فى هذا ما يدل على أن هذا النقل كان من كتاب آخر هو ذلك الذى ذكره « بروكلمان » خاصة أن التأليف فى الأضداد كان شائعا

---

(١) تاريخ الأدب العربى ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) أنظر الغريب المصنف نسخة تحت رقم ١٢١ لغة ص ٣٩٥ ونسخة أخرى تونسية ص

(٣) أنظر : الأضداد فى اللغة صفحات ٢٣، ٧٨، ٨٩، ٩٠، ١٠٣، ١١٧ .

بين لغوي ذلك العصر ، وقد وصل إلينا كتاب فى الأضداد للأصمعى أستاذ أبى عبيد ، ونشره « هفنر » فى بيروت سنه ١٩١٢ م .

ولعل كتاب أبى عبيد حبيساً فى مكان ماينتظر الإفراج عنه والنشر على أحر من الجمر .

هذا وقد نقل السيوطى فى مزهره عن هذا الكتاب فقال :

« وفى كتاب الاضداد لأبى عبيد : تقول العرب ظلمة ظلماء ، وقطانى قطواء »[١] وهذا يؤكد أنه رأى ذلك الكتاب .

٥ — كتاب النعم والبهائم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض :

ذكره بروكلمان وقال نشره بوجس ... وقال : وربما كان هذا أيضا قسما من كتاب غريب المصنف[٢] .

ومع أن ناشر هذا الكتاب قد نسبه إلى أبى عبيد فإن بعض الباحثين يرون نسبته إلى ابن قتيبة ويردون من يتشكك فى هذه النسبة .

يقول الدكتور عبد الحميد سند (وقد شك الدكتور الحسينى فى نسبة هذا الكتاب إلى ابن قتيبة ولكنى أرجح صحة هذه النسبة لأنه يناقش الجاحظ ويخطئه فى بعض الألفاظ على طريقته المعهودة أضف إلى ذلك أنه طعمه ببعض الألفاظ الفارسية كعادته حين يتحدث عن أصل الكلمة أحيانا وحين يقارن بين اللفظين الفارسى والعربى)[٣] .

---

(١) المزهر حـ ٢ ص ٢٤٩

(٢) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٨

(٣) ابن قتيبة ، العالم الناقد الأديب ص ١٦٦

وقد ذكر باحث حديث فى أبن قتيبة أن الدكتور الجبورى قد انتهى من دراسته لهذا الكتاب إلى نسبته لمؤلف عاش بعد ابن قتيبة .

وهكذا نرى حيرة هذا الكتاب واختلاف العلماء فى نسبته بل واختلافهم فى تقويمه فهذا الدكتور سند يثنى عليه ويقول إنه كتاب مفيد جداً من الناحية اللغوية .

نرى الباحث السابق يقول ، وكتابه عبارة عن نصوص لغوية بمجموعة من كتب اللغة لا سمة لطابع التأليف فيه .

ويقتضى الانصاف أن أؤجل حكمى على هذا الكتاب حتى أطلع عليه ذلك أنه وإن كان مطبوعا فهو فى حكم المخطوطات .

وإلى أن نلتقى بصفحات هذا الكتاب فإنه يمكننا أن نطمئن قليلا بقراءة ما أشار إليه الدكتور حسين نصار حيث يقول .

(كل هذه الأمور التى رأيناها فى الغريب المصنف نراها بعبارتها فى كتاب النعم والبهائم والوحش ... المنسوب لابن قتيبه ونشره الأب موريس بوج pnouricepouges ولا خلاف بينهما إلا فى أن هذا حذف شواهد أبى عبيد وأسماء اللغويين والأعراب الذين ذكرهم وقدشك المحقق فى نسبة الكتاب ورجح أنه ليس لابن قتيبة وأقام ترجيحه على أسباب وجيهة(١) .

---

(١) المعجم العربى ١ / ٢١٥

٦ — كتاب فعل وأفعل .

وقد ذكره (بروكلمان) وأشار إلى أنه فى القاهرة ثانى[١] ٣ ، ٢٨١

كذلك أشار الدكتور حسين نصار إلى هذا الكتاب فى حديثه عن الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع حيث يقول ، (وكانت كتبه الأولى تعالج صيغتى فعل وأفعل وتتناول هاتين الصيغتين من الفعل الواحد حين تتفقان فى المعنى أو تختلفان أو لا يرد للعرب إلا إحداهما وأول من روى أنه ألف فيه قطرب ٢٠٦ هـ ، والفـــراء (٢٠٧) هـ ثم أبو عبيدة (٢١٠) والأصمعى ٢١٣ هـ ، وأبو زيد الأنصارى ٢١٥هـ ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ٢٢٤ هـ وورد فى أبواب الغريب المصنف أيضاً[٢] .

٧ — كتاب ما خالفت فيه العامة لغة العرب :

ذكره (بروكلمان) وأشار إلى أن صاحب لسان العرب قد نقل منه بعض نصوصه فى الجزء السابع / ٢٦٣ س ١٥ وبالنظر فى ذلك الموضوع من لسان العرب نراه يقـول : القاقوزة كالقازوزة وهى أعلى منها أعجمية معربة قال أبو عبيد فى كتاب ما خالفت فيه العامة لغات العرب هى قاقوزة وقازوزة التى تسمى قاقزة .

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز مطر هذا الكتاب ونقل النص السابق عن لسان العرب ولاحظ الاختلاف اليسير فى التسمية بين بروكلمان وما ذكره بن منظور وأشار إلى أن الكتاب مفقود[٣] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٩

(٢) المعجم العربى حـ ١ ص ١٨٠

(٣) لحن العامة فى الدراسات اللغوية الحديثة ص ٥٩

وتبدو الإشارات إلى هذا الكتاب شاحبة عند الدكتور حسين نصار فهو لا يذكر حتى ذلك النص الذى أشار إليه بروكلمان (١) .

وكذلك فعل الدكتور محمد حسين آل ياسين فقد ذكر مؤلفات لحن العامة بعد الكسائى وذكر المؤلفين فيها ومن بينهم كان أبو عبيد ثم قال : « ولم يصل إلينا — فيما عدا — كتاب ابن السكت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ منها شىء سوى نص واحد من كتاب الأصمعى نقله ابن يعيش لا تعنى شيئا فى معرفة منهج الكتاب(٢) » .

٨ — كتاب النخل والكرم :

ولم نر أحدا من المؤرخين ينسب إلى أبى عبيد كتابا بها الاسم غير أن الناشر الثانى لهذا الكتاب ضمن مجموع البلغة فى شذور اللغة بقول عن نسبة الدكتور هفنر هذا الكتاب للأصمعى : « أما نسبة الدكتور هفنر هذا الكتاب للأصمعى فهو على ما نظن على التغليب لأن نسختنا التى أخذ عنها لا تصرح باسم الأصمعى ومن المحتمل أن يكون الكتاب لأبى عبيد معاصر الأصمعى وقد توفى سنه ٢٢٤ للهجرة (٧٣٩م) ومما يحملنا إلى نسبته لأبى عبيد أن الشروح للمفردات يوافق ما جاء فى لسان العرب والمخصص لابن سيده منسوبا لأبى عبيد أكثر منها للأصمعى ، ومن المحتمل أن يكون الكتاب لأبى حاتم السجستانى تلميذ الأصمعى كما رواه عن أستاذه وعن أبى عبيد فجمع بين روايتيهما ولذلك ترى اسمه فى أول كتاب الكرم والله أعلم(٣) .

---

(١) انظر : المعجم العربى . . ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) الدراسات اللغوية عند العرب ص ١٧٣ .

(٣) البلغة فى شذور اللغة ص ٦٣

وفى هذا الكتاب عبارات تشبه ما فى كتاب أو باب النخل فى الغريب المصنف وبخاصة فيما وضع تحت هذا الاسم من الكتاب مما يجعلنا نرجح أن يكون هذا القسم من كلام أبى عبيد من كتاب خاص أو من كتابه الغريب المصنف ، وفى كتاب « التنبيهات على أغاليط الرواه » نص يشبه أيضاً ما فى هذا الكتاب لكننا وجدناه كذلك فى الغريب المصنف وهو قوله : وقال أبو عبيد (ب٢٨٣) فى كتاب النخل : فاذا قلعت الودية من أمها بكربها قيل دربه منقلة (وقال الطرسى غلط أبو عبيد فى قوله بكربها إنما هو بكربه والقول قول الطوسى[1])

وربما أيد هذا كلامنا السابق وماذهبنا إليه من ترجيح .

٩ — كتاب ما ورد فى القرآن من لغات القبائل :

ويرى « بروكلمان » أن هذا لا يمثل كتابا مستقلا وأنه عبارة عن قائمة مأخوذة من كتاب أبى عبيد المفقود والمسمى : بغريب القرآن ، وقد طبعت هذه القائمة على هامش كتاب التيسير فى علم التفسير لعبد العزيز بن محمد الديربى المتوفى سنة ٦٩٤ ه (١٢٩٥ م) المطبوع فى القاهـــرة سنة ١٣٩٠ ه[2] .

هذا ويرى الدكتور حسين نصار أن تلك الرسالة المطبوعة على هامش تفسير الجلالين المطبوع بدار إحياء الكتب العربية ليست إلا نسخة مهذبة ومزيدة من الكتاب المنسوب إلى ابن عباس فى هذا الموضوع كما يرى أن تلك الرساله ليست لأبى عبيد القاسم بن سلام وإنما هى لراو

---

(١) التنبيهات ص ٢٣٩

(٢) تاريخ الأدب العربى ١٥٩/٢

يسمى أبا القاسم بن سلام ، ولم يستطع معرفته ، وإن أكثر السيوطى من النقل عنه فى الإتقان مكتفيا بذكر كنيته دون اسمه .(١)

وقد ذكر الدكتور صلاح المنجد فى مقدمة تحقيقه للكتاب المنسوب إلى ابن عباس أن « لغات القرآن موضوع جليل ذو شأن ، عنى به العلماء وأصل النظر فى اللغة منذ القرن الأول للهجرة وألفوا فيه فى القرن الثانى فكان ممن ألف منهم : الفراء ، وأبو زيد ، والأصمعى ، والهيثم بن عدى ، ومحمد بن يحيى القطيعى ويذكر ابن النديم أن ابن دريد ألف كتابا فى لغات القرآن أيضاً وأنه لم يتمه(٢) .

وربما دفعنا هذا إلى القول بعدم استبعاد أن يكون لأبى عبيد رسالة فى هذا الموضوع وأن المقصود بأبى القاسم هو أبو عبيد إذا أخذنا فى الاعتبار إمكان سقوط لفظ عبيد أو زيادة نقط « أبى » خاصة أنه قد عرف عن أبى عبيد العناية بالقرآن الكريم ودراسات وأنه قد نسبت إليه فيما يتصل بلغته آراء لا نكاد نجدها فى أى من كتبه الأخرى وخاصة أن بعض العلماء وضع مكان أبى القاسم هـذا فى نص ذكره السيوطى اسم أبى عبيد القاسم بن سلام كما سيأتى فى الحديث عن الغريب المصنف .

---

(١) المعجم العربى جـ ١ ص ٧٤

(٢) كتاب اللغات فى القرآن : ص ٥

١٠ — كتاب الرحل والمنزل :

وقد نشره الأب لويس شيخو فى مجموعة : البلغة فى شذور اللغة من ص ١٢١ إلى ص١٣٦ وذلك عن مجموع ينسب لابن قتيبه باسم : الجراثيم وقد رجح الأب نسبته إلى أبى عبيد نظراً لأنه لم يعرف لابن قتيبة كتاب بهذا الأسم ولأن معجم لسان العرب وكتاب المخصص لابن سيده يكادان يذكران معظم مضامين هذا الكتاب متفرقة فى مكانها وبحرفها الواحد وهما ينسبانها لأبى عبيد المتوفى سنة ٢٢٤ ﻫ (٨٣٩) م(١) .

ويرى الأب أن هذا الفصل من أجدى الأبواب نفعاً لأنه « يتضمن معظم المفردات التى يستعملها العرب فى أسفارهم ومنازلهم فتفيدنا كثيراً من عاداتهم وأمورهم الأهلية(٢) »

هـــذا ومن المعروف أنه ليس لأبى عبيد فى الغريب المصنف باب خاص بهذا العنوان مما يرجح — إذا صح كلام الأب لويس — أن يكون له كتاب فى هذا المعنى ، وبذلك العنوان .

---

(١) البلغة فى شذور اللغة ص ١٢١

(٢) المرجع السابق ص١٢١

١١ — كتاب أمالى أبى عبيد :

يقول السيوطى فى المزهر : « وقال أبو عبيد فى أماليه : حكى عن أبى عمرو بن العلاء أنه سئل عن قول امرىء القيس :

نطعنهم سلكى ومخلوجة
كرك لأمين على نابل

فقال : قد ذهب من يحسنه »(١) .

ويهمنا من هذه العبارة ذكره أن لأبى عبيد أمالى ومايبدو من نقله عنها أنه رآها .

وقد نسبت الأمالى لكثير من العلماء وطبع كثير منها مثل أمالى القالى ، وأمالى الشريف المرتضى ، وأمالى ثعلب ، وأمالى السهيلى ولم نر أحداً نسب لأبى عبيد أمالى سوى السيوطى .

والظاهر أنها قد ذهبت فيما ذهب من كتبه المفقودة .

١٢ — كتاب الأجناس :

ويسميه بعضهم : « الأجناس من كلام العرب ، وما اشتبه فى اللفظ واختلف فى المعنى » وقد ذكره بروكلمان وأشار إلى نسخه ونشره(٢) .

ومن هذا الكتاب عدة نسخ مخطوطة بعضها موجود بدار الكتب المصرية

---

(١) المزهر جـ٢ صـ٣٢٣
(٢) تاريخ الأدب العربى ١٥٦/٢

ضمن مجموع تحت رقم (٢٣٤) مجاميع ، وقد طبع بالهند سنة ١٩٣٨ م ١٣٥٦ هـ ، تصحيح أمتاز عرشي « وهو كتيب صغير يشتمل على نحو ٣٠٠ كلمة كلها مقتبسة من كتاب أبي عبيد نفسه المسمى بالغريب المصنف والذي لا يزال مخطوطاً حتى الآن » .

هذا ما يقوله عنه الدكتور إبراهيم أنيس[١] ، لكن صاحب تذكرة النوادر يرى أن هذه الكلمات مأخوذة من كتاب غريب الحديث للمؤلف نفسه[٢] .

وهذه الكلمات كلها تمثل ما يعرف بالمشترك في الدراسات اللغوية ومن أمثلتها :

« البيظ : القشر الرقيق الذي يكون داخل قشرة البيضة ، والبيظ ماء قليل يكون في النقرة ، التي تكون في أسفل البئر ، والبيظ : خيال الوجه في السيف ، والبيظ : بيظ النمل ، والبيظ : ماء الرجل) .

الكتوم : الكتوم للسر ، والكتوم الليل ، والكتوم الناقة القليلة الرغاء والكتوم الهذم ، والكتوم الشراب يذهب بالعقل ، والكتوم : الثلج يستر الأرض ، وكل شيء ستر شيئاً فقد كتمه .

الجنان الليل وإنما سمي جناناً لأنه يجن كل شيء بظلمته ، والجنان الفؤاد ، إنما سمي جناناً لأنه يجن السر ، والجنان : الترس ، وإنما سمي جناناً لأنه جنة من السيف والرمح والجنان الثوب الأعلى على الثياب) .

ويرى الدكتور زغلول سلام أن أباعبيد لم يفرد كتاباً للأجناس وأن

---

(١) دلالة الألفاظ / ٢١٤

(٢) مذكرة النوادر / ١٠٧

هذا الكتاب (استخرجه المتأخرون أو بعض تلاميذه من كتابه فى غريب الحديث . .) .

كما يرى أن أبا عبيد يحاول أن يعلل التعدد فى معانى اللفظ فيمهد للبحث فى الإشتقاق(١) .

أما الدكتور إبراهيم أنيس فانه يرى أن الباحث يستطيع استبعاد عدد كبير من تلك الألفاظ المشتركة (لأنها لا تعدو أن تكون من أمثلة التطور الدلالى بين دلالة حقيقية وأخرى مجازية فهو مثلا يعد كلمة (الجنان) من المشترك اللفظى لأنها تعبر عن دلالات أربع هى الليل ، والفؤاد ، والترس ، والثوب الأعلى على الثياب . .) ثم يستغرب تعليل أبى عبيد وذكره السر فى هذه الدلالات المختلفة ثم يقول : (فهو إذن يتجاهل النسب المختلفة فى شيوع الدلالات ويتجاهل فوق هذا أن المشترك اللفظى فى صورته الصحيحة لا يتصور إلا حيث تنقطع الصلة بين الدلالتين كالخال حين يعبر عن الوشم فى الوجه وعن أخ الأم مثلا)(٢) .

وهكذا يرى كل من الدكتورين فى عمل أبى عبيد أمراً يختلف عما رآه الآخر ، تبعاً لموضوع كل منهما ومنهجه .

ويلاحظ أنهما يختلفان أيضاً فى المصدر الذى أخذ منه هذا الكتاب إذ يرى الدكتور أنيس أنه مأخوذ من الغريب المصنف على حين يرى الدكتور زغلول أنه مأخوذ من غريب الحديث .

ولعل من العجيب أن لأبى عبيد فى الغريب المصنف كتاباً سماه (كتاب

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى/١٩١

(٢) دلالة الألفاظ ٢٢١

الأجناس) وهو يختلف فى موضوعه ومنهجه عن ذلك الكتاب الذى هو معنى فقط بالألفاظ المشتركة على النحو السابق .

١٣ — كتاب فى النحو :

كان أبو عبيد لغوياً نحوياً ولكن الظاهر أنه اشتهر أكثر باللغة وأن أكثر مؤلفاته اللغوية كان فيها ومن ثم فإننا لا نكاد نعثر فيما أطلعنا عليه على كتاب له فى النحو وإن كنا نلتقى كثيراً ببعض أفكاره النحوية فى تلك الكتب اللغوية والأدبية التى عكف عليها ووقف على الإبداع فيها معظم حياته ، كذلك لا نعدم مثل هذه الآراء والأفكار فى كتبه الأخرى على نحو ما أشرنا إليه سابقاً فى الحديث عن آثاره فى كتب الفقه والدراسات القرآنية وغيرها .

ومع هذا فإننا نستطيع القول بأن هذا العالم الواسع الثقافة لم يترك ميدان النحو دون مشاركة تأليفية فيه وأنه لم يكن ناقص العلم بالإعراب على نحو مايزعم أبو الطيب اللغوى ومن اتبعه فى هذا الرأى العجيب[1] .

والذى يؤيدنا فى هذا — إلى جانب مايراه القارىء فى كتبه السابقة أننا تأكدنا من وجود كتاب له على الأقل فى النحو ذكره الإمام اللغوى أبو منصور الأزهرى ونقل منه فى موسوعته الكبيرة المعروفة بالتهذيب أو تهذيب اللغة .

يقول رحمه الله : « أبو عبيد عن الكسائى : يقول فقدك الله مثل نشدتك الله ، وقال أيضاً قعدك الله أى الله معك وأنشد :

---

(١) أنظر مراتب النحويين ٩٣

قعيد كما الله الذى أقتماله
ألم تسمعا بالبيتغتين المنادما

قال وأنشد غيره عن قريبة الأعرابية :

فعيدك عمر الله يا بنت مالك
ألم تعليمنا مأوى المعصب

قال : ولم أسمع بيتاً أجتمع فيه العمر والقعيد إلا هذا ، قال وقال الأصمعى : قصدك لا أفعل ذاك وقصيدك وقال متمم .

قعيدك ألا تسمعينى ملامة
ولا تنكئى فرح الفؤاد فييجعا

وقال أبو عبيد أيضاً فى كتابه فى النحو : عليا مضر تقول : قصيدك لتفعلن كذا قال : القعيد الأب(١) .

هذا ومازال ذلك الكتاب مغموراً لا يعرف أحد عنه شيئاً مما يرجح فقدانه منذ وقت بعيد .

١٤ — كتاب الإيضاح :

ذكره «بروكلمان» وذكر أنه مخطوط باق فى مكتبة فاس أول(القرويين) ١١٨٣ ولم يبين لنا شيئاً عن موضوعه ، ولم يتهيأ لى بعد الإطلاع عليه ، وقد وضعته فى كتب اللغة بغلبة الظن حيث إن بعض الكتب اللغوية أو النحوية تحمل هذا الإسم وقد كان من عادة القدماء المتابعه والإقتداء فى أسماء الكتب والمصنفات ويظل أمر هذا الكتاب وحقيقة نسبته فى موضع التوقف حتى نقف عليه إن شاء الله .

---

(١) تهذيب اللغة حـ١ ص ٢٠٠

١٥ — كتاب استدراك الغلط :

ذكره السيد مرتضى الزبيدى فى مقدمة : تاج العروس(١) ، وذلك ضمن مراجعه التى أعتمد عليها ولم أره — حتى الآن — عند أحد غيره وقد أغفل الدكتور حسين نصار فى حديثه عن مراجع تاج العروس(٢) ، ذكر هذا الكتاب كما يلاحظ أنه نسب الكتابين الآخرين السابقين :أنساب العرب ، وأنساب الخيل إلى أبى عبيدة ولعل هذا من تحريفات النسخ أو من أخطاء الطباعة وكم فعلت ومازالت تفعل بنا تلك التحريفات وهذه الأخطاء حيث لا يفرق بين أبى عبيدة معمر بن المثنى وأبى عبيد القاسم ابن سلام عند الإكتفاء بالكنية إلا وجود تلك التاء أو عدم وجودها .

هذا ولم يبين لنا صاحب التاج موضوع هـــذا ولا أى غلط قد استدرك .

ومما يزيد الأمر غموضاً أن هناك بعض كتب لغوية تحمل هذا الإسم أو شبهه لكنها لا تنسب إلى أى من الشيخين السابقين .

لكن صاحب التاج يؤكد تلك النسبة للكتب الثلاثة بقوله : وكتاب أنساب الخيل وأنساب العرب ، واستدراك الغلط الثلاثة لأبى عبيد القاسم بن سلام » .

---

(١) تاج العروس حـ ص ٤

(٢) المعجم العربى جـ ٢ ص ٦٤١

١٦ — كتاب غريب الحديث :

موسوعة علمية لغوية نسبت إلى أبى عبيد ورويت عنه باسم (غريب الحديث) كما هو عند الأكثر، أو باسم (شرح غريب الحديث) أو (المسند) كما يحلو للبعض أن يطلق عليها ، وقد تسمى أحيانا بغريب أبى عبيد فيحدث ثمة لبس بينها وبين الموسوعة العلمية اللغوية الأخرى التى قدمها أبو عبيد باسم (الغريب المصنف) التى كان للرواة أيضا فى تسميتها ضرب من الاختلاف ربما عرضنا له فيما يستقبل .

وقد أشار النووى إلى اختلافهم فى أسماء الكتب فقال :

(قلت نجد الاختلاف فى أسماء مصنفات المتقدمين كثيراً ، وهذا الاختلاف نشأ من جامعيها وكتابها ، مثلا : المصنف لابن أبى شيبة كان يسمى بالمسند كما ذكره ابن النديم ، وغريب الحديث لأبى عبيد كان يسمى أيضا بالمسند كما تقدم ، وكذا الصحيح لابن حبان المذكور كان يعرف بكتاب الأنواع والتقاسيم)[1] .

وقد وثقت هذه النسبة كل أقوال من أرخوا لأبى عبيد ، وكان على رأسهم فى هذا ابن النديم ، والزبيدى ، والبغدادى ، والقفطى ، وابن خلكان ، والنووى ، والسبكى ، وابن الأثير ، وحاجى خليفة ، والزركلى وإن خلط بين غريب الحديث والغريب المصنف فيما يبدو ، وبروكلمان ، وجرجى زيدان وغيرهم .

وقد أكد السابقون فى حديثهم بذكر روايات النسبة أو الأخذ عنه والسماع له ، بينما أكد المحدثون أقوالهم بالإشارة إلى وجود هذا الكتاب

---

(١) تذكرة النوادر / ٩٣

وإلى ماسلم لنا من مخطوطاته ونسخه ، قبل أن تبرز حروفه وكلماته آلات الطباعة فى السنوات الأخيرة .

وقد أراد بعضهم أن يجعل من سماع هذا الكتاب وروايته دليلا على قيمته العلمية وشرفه فكانوا حريصين على بيان أن أول من سمعه أو كتبه أو قرىء عليه قوم هم أئمة عصرهم ، وشيوخ زمانهم ، بل إن منهم من امتدت راية إمامته ، ومظلة ريادته إلى عصرنا وإلى كل العصور التى يأذن الله بها إلى يوم الدين .

فقد ذكر البغدادى فى تاريخ بغداد ، والقفطى فى إنباه الرواه نقلا عن معاصرى أبى عبيد أن أول من سمع هذا الكتاب هو يحى بن معين وأن أول من كتبه هو الإمام أحمد بن حنبل .

يقول القفطى « وأول من سمع هذا الكتاب من أبى عبيد يحى بن معين، وعرض هذا الكتاب على أحمد بن حنبل فاستحسنه وقال : جزاه الله خيرا، وكتب أحمد كتاب غريب الحديث الذى ألفه أبو عبيد أولا »(١) .

ويذكر رواية أخرى فيقول : وقال جعفر بن محمد بن على المدينى سمعت أبى يقول : خرج أبى إلى أحمد بن حنبل يعوده وأنا معه قال : فدخل عليه وعنده يحى بن معين وذكر جماعة من المحدثين . قال : فدخل أبو عبيد القاسم بن سلام ، فقال له يحى بن معين : إقرأ علينا كتابك الذى عملته للمأمون فى غريب الحديث ، فقال : هاتوه فجاءوا به ، فأخذه أبو عبيد فجعل يبدأ يقرأ الأسانيد ، ويدع تفسير الغريب ، قال : فقال له أبى : يا أبا عبيد دعنا من الأسانيد نحن أحذق بها منك ، فقال يحى بن معين لعلى بن المدينى : دعه يقرأ على الوجه ، فإن إبنك محمدا معك ونحن نحتاج

---

(١) إنباه الرواه ١٦/٣

إلى أن نسمعه على الوجه ، فقال أبو عبيد : ما قرأنه إلا على المأمون ، فإن أحببتم أن تقرءوه فاقرءوه ، قال : فقال له على بن المدينى إن قراءته علينا أولى وإلا فلا حاجة لنا فيه — ولم يعرف أبو عبيد على بن المدينى — فقال ليحيى بن معين : من هذا ؟ قال هذا على بن المدينى ، فالتزمه وقرأه علينا . فمن حضر ذلك المجلس جاز أن يقول : حدثنا وغير ذلك فلا يقول(١) .

وهكذا تم السماع الأول ، والقراءة الأولى على أهل العلم والشرف من عصبة الخير التى بدأت بأمير المؤمنين العالم ، وانتهت بتلك الكوكبة من علماء الحديث والفقه .

ولم يحرم من ذلك — فيما بعد — كل تلاميذ أبى عبيد وفى مقدمتهم تلميذه النجيب وراويه الأول على بن عبد العزيز .

وما كان أبو عبيد ليبخل بهذا الكتاب على العلماء ، وطلاب العلم وإن تكبر به على أهل الدنيا وأرباب الحكم والسياسة .

فقد كان يأتى للعلماء فى دورهم على نحو ما رأينا ولا يأتى الأمراء إذا دعوه لذلك ، فقد ذكروا أن طاهر بن عبد الله كان يود أن يأتيه أبو عبيد ليسمع منه كتاب « غريب الحديث » فى منزله . فلم يفعل إجلالا لحديث رسول الله ﷺ فكان هو يأتيه ، وقدم على بن المدينى وعباس العنبرى فأراد أن يسمعا « غريب الحديث » فكان يحمل كل يوم كتابه ويأتيهما فى منزلهما فيحدثهما فيه إجلالا لعلمهما . يقول الراوى : « وهذه شيمة شريفة رحم الله أبا عبيد »(٢) .

---

(١) إنباه الرواه ٣/١٧ ومابعدها .

(٢) المرجع السابق ٣/١٧ .

وعن هؤلاء الأعلام وغيرهم من تلامذة أبي عبيد سارت رواية هذا السفر الجليل تنتقل من جيل إلى جيل ، وحفظ التاريخ أسماء كثير من الأعلام الذين قرأوا أو سمعوا أو كتبوا غريب الحديث لأبي عبيد .

ونحن لا نستطيع أن نحصى كل هؤلاء ، وليس من منهجنا هنا ذلك ، وإنما هي أسماء نذكرها للعلم والتاريخ .

لقد روى الأزهرى أبو منصور هذا الكتاب ، وحصله كما ذكر وكما نرى فى معجمه « تهذيب اللغة » من أهم مصادره ووصفه بالنبل والشرف(١).

وذكر ابن خـــير الإشبيلى فى فهرسته طرقا عديدة لروايته غريب الحديث(٢) .

ومن الأعلام الذين كانوا يروونه ويحفظون سنده الشاعر المعروف أبو العلاء المعرى (٣) .

ومنهم ابن الوزان فقد قرأ على ابن عيذون شرح غريب الحديث لأبي عبيد كما يقول الزبيدى (٤) .

وكان من آثار تلك الرواية والإقبال على حفظ هذا الأثر المهم وكتابته أن وصلت إلينا عدة نسخ مخطوطة منه بعضها قريب العهد جدا بمؤلفه . فقد ذكر « بروكلمان » (٥) أن فى مكتبة الأزهر بمصر أقدم نسخة من

---

(١) تهذيب اللغة ١/٢٠ .
(٢) فهرسة ما رواه عن شيوخه / ١٨٦ .
(٣) أنباه الرواة ١/٦٩ .
(٤) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٦٩ .
(٥) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٦ .

هذا الكتاب ، فقد كتبت سنة ٣١١هـ ٩٢٣م وأحالنا إلى مجلة المجمع العلمى العربى ٤٠٦/١٣ وفيها تقرأ عن زيارة سمو الأمير سعود لمكتبة الأزهر ما نصه : « ووقف على كتاب خط يعتبر من أثمن الكتب العربية فى العالم ، ولا توجد منه فى مصر غير نسخة واحدة فى هذه المكتبة وهو كتاب غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣ هـ .

وهذا الكتاب مخطوط بقلم شرقى بخط أبى الخطاب الحسينى ومكتوب فى سنة ٣١١ هـ » (١).

وقد حاولت رؤية هذه النسخة ، فلم يقبل المسئولون وقدمت إلى نسخة منقولة منها ، ذات خط حسن مضبوط ، وذلك حفاظا — كما قيل يومها على تلك النسخة القديمة النادرة .

كما ذكر « بروكلمان » أن هناك نسخا أخرى من الكتاب فى ليدن ، وكوبريلى ، ورامبور ، ومكتبة شيخ الإسلام، والمكتبة السندية وأشار إلى أنه تقرر نشره فى حيدر أباد فى برنامج سنة ١٣٥٤ (٢) رقم ٥ .

وقد نشر الكتاب فعلا فى أربعة مجلدات ، وذكر الناشر أنه سيتلوها غيرها بالفهارس والملاحق المطلوبة ، وتم تصحيحه عن أربع نسخ وصفها القائم بالتصحيح ، وكانت المفاجأة فى هذا تأتى فيما ذكره هذا المصحح من أن نسخة « ليدن » أقدم من نسخة الجامع الأزهر ، فقد وجد بآخرها مالفظـــه :

« آخر الكتاب صلى الله على محمد وسلم كثيرا ، فرغ منه فى ذى القعدة سنة ثنتين وخمسين ومائتين (١) » .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى س ١٣ م ١٣/١٩٣٣ ص ٤٠٦ وما بعدها .
(٢) تاريخ الأدب العربى ١٥٦/٢ .
(٣) غريب الحديث : المقدمة ص يو .

فهى إذن كما يقول المصحح : «أقدم نسخة وصلت إلينا لأنها كتبت بعد ثمان وعشرين سنة فقط من وفاة المؤلف» وقد ذكر المصحح أنها مشوشة وغير مرتبة (١) .

ومما لا شك فيه أن نشر هذا الكتاب يعد كسبا ضخما لعلوم اللغة والحديث ، وإن كانت تلك النشرة ما تزال فى حاجة إلى جهـــود أخرى كبيرة ، تظهر هذا الكنز على وجهه ، وتبرز ما فيه من درر وجواهر .

وعندما تتأكد النسبة والرواية والكتابة والنشر فإن من حق القارىء أن يتساءل عن موضوع هذا الكتاب ، وعن منهجه ، وعن تاريخ تأليفه وكيفيته وظروفه ، وعن مصادره ؟ وعن أهميته وأثره ؟ وعما دار حوله من دراسات ؟ وعن غير ذلك مما يتصل بمادته وما يحويه من ضروب العلم وألوان الثقافة المختلفة . . ؟ .

ولست أدعى — وقد قرأت أكثر هذا الكتاب مخطوطا — قبل أن أحصل عليه مطبوعا — أنى أستطيع توفية كل هذه النقاط فى غير بحث مستقل بهذا الكتاب .

ولكننى — بالطبع — أستطيع بمعونة الله أن أقدم فى هذا ما يناسب المقام ، ويشفى الأوام .

إن موضوع هذا الكتاب هو الألفاظ الغريبة التى وردت فى أحاديث النبى ﷺ وآثار صحابته وتابعيهم .

والهدف هو جمعها وتفسيرها وتوضيحها .

---

(١) المرجع السابق .

واللفظ الغريب كما يقول الخطابي: هو الغامض البعيد من الفهم كالغريب من الناس وقال : إن الغريب من الكلام يستعمل على وجهين :

« أحدهما أن يراد أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها »[1] .

وقد ارجع الخطابي وجود الغرابة في حديث رسول الله ﷺ إلى ما يأتي :

— كثرة المواطن والموضوعات التي يتحدث فيها النبي ﷺ واختلاف عباراته ، وتكرر بيانه ، وحفظ الصحابة لكل ما يصدر عنه في الموضوع الواحد فيجمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ تحتها معنى واحد » .

— تنوع صور تأدية مايسمع منه ﷺ بتنوع لغات وألسنة المستمعين « فيجمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقه عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد » .

وقد أرجع ابن الأثير نشأة الغرابة إلى عامل الجهل بلغة الحديث في عهد النبي ﷺ ، وفي عصر الصحابة، وتحول اللسان بعد عصرهم أعجميا ، فصرف العلماء طرفا من عنايتهم فألفوا في حراسة هذا العلم[2] .

---

(١) كشف الظنون ٢/١٥٥

(٢) أنظر مقدمة غريب الحديث جـ ١ ص ب وأنظر مقدمة النهاية ١/٤

ولست أرى تناقضا بين ما رآه الخطابى وما رآه ابن الأثير فكلا العاملين أو كل العوامل تشترك فى إختفاء لون من الاستغراب على جزء من ذلك الكلام المروى عن رسول الله ﷺ وعن صحابته وتابعيهم، وتلك طبيعة التطور تجعل معروف اليوم مجهولا فى الغد، واللغة أصلا لا يحيط بها إلا نبى كما يروى عن الشافعى رضى الله عنه.

فإذا ما أحس المجتمع اللغوى بهذه الغرابة، أو بعدم الوضوح النسبى، فعليه أن يبادر بالشرح والترضيح، ويكون ذلك محتوما إذا كان النص المستغرب من كتاب الله أو من حديث رسول الله ﷺ.

وهذا ما فعله علمـــاء العربية خدمة لكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.

وهذا ما فعله أبو عبيد، وما قضى فيه خلاصة عمره كما يقول: «إنى جمعت كتابى هذا فى أربعين سنة وهو كان خلاصة عمرى»(١).

وفى عبارة أخرى نراه يقول: مكثت فى تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها فى موضعها من الكتاب فأبيت ساهرا فرحا منى بتلك الفائدة، وأحدكم يجيئنى فيقيم عندى أربعة أو خمسة أشهر فيقول: قد أقمت كثيرا(٢)».

ويا لها من عبارة قيمة تبين لنا مدة تأليف هذا الكتاب وترشدنا إلى طريقة هذا التأليف، وتوضح لنا مصادره.

---

(١) النهاية لابن الأثير ص ٦

(٢) وفيات الأعيان ٣/٢٢٥

فالظاهر أن أبا عبيد كان يقسم كتابه على النحو الذى نراه على أساس المسانيد ، ثم يضع أحاديث كل مسند ، ثم يبحث بعد ذلك عن الغريب فى كل حديث .

فإذا ما وضع يده عليه بحث عن معناه . وما يوضحه ويزيل غرابته ، فإذا ما هيأ الله له ذلك من أفواه العلماء أسرع إلى كتابه فسجله فى مكانه منه ، وتلك طريقة رائعة متأنية فى التأليف وهى تعد اليوم من أحدث ما ينادى به المنهج التأليفى فى عصرنا الحاضر .

إن أربعين سنة بهذا المنهج تعد فترة خصبة لإخراج مثل هذا العمل .

وهى ترد — إلى جانب كيفية التأليف — على من زعموا إعتماد شيخنا على كتاب أو كتب سابقة ، فالذى يعتمد أو ينتزع من الكتب السابقة لا يقضى أربعين سنة فى مثل هذا العمل .

وكان الله لأبى الطيب اللغوى عندما يريد الحط من قدر أبى عبيد فيقول : « وأما كتابه فى غريب الحديث . فإنه اعتمد فيه على كتاب أبى عبيدة معمر ابن المثنى فى غريب الحديث[1] » .

ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن كتاب معمر بن المثنى ؟ وهل يصلح حقا أن يكون معتمدا لهذا السفر العظيم ؟ بل إننا لنتساءل عن غيره من الكتب التى سبقت أبا عبيد وعن أثرها بالنسبة لعمله .

لقد ذكر المؤرخون لعلم غريب الحديث أن الكتب التى سبقت أبا عبيد كانت على النحو التالى :

---

(١) مراتب النحويين ٩٣

١ — كتاب غريب الحديث لأبى عدنان عبد الرحمن بن عبد الأعلى وكان معاصرا لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وقد وصف كتابه بأنه ليس بالكبير (١) .

ولم يذكر أحد أن أبا عبيد قد أخذ عنه .

٢ — كتاب غريب الحديث لأبى عبيدة معمر بن المثنى وقد وصف ابن الأثير هذا الكتاب بأنه صغير ذو أوراق معدودات(٢) فهل يعقل إعتماد أبى عبيد عليه ، إن الدكتور حسين نصار يعلق على هذا بقوله «وهو قول لا يمكن تصديقه لضخامة كتاب أبى عبيد ووصف المؤرخين كتاب أبى عبيدة بالقلة المفرطة »(٣) .

٣ — كتاب غريب الحديث للنضر بن شميل وقد وصفه ابن الأثير أيضا بالصغر ولطف الحجم(٤) ولم يزعم أحد أن أبا عبيد قد اعتمد عليه .

وقد نسبت كتب فى غريب الحديث أيضا إلى قطرب ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، وسلمة بن عاصم الكوفى .

ولكن هذه الكتب وصفت جميعاً بما وصف به كتاب أبى عبيدة معمر ابن المثنى من الصغر وقلة الخطر .

ولذلك يقول ابن الأثير : « واستمرت الحال إلى زمن أبى عبيد القاسم ابن سلام وذلك بعد المائتين فجمع كتابه المشهور فى غريب الحديث والآثار

---

(١) المعجم العربى ١/٥٠ وما بعدها
(٢) النهاية ١/٥
(٣) المعجم العربى ١/٥٣
(٤) النهاية فى غريب الحديث والأثر ١/٦

الذى صار . وإن كان أخيرا — أولا لما حواه من الأحاديث والآثار الكثيرة والمعانى اللطيفة والفوائد الجمة فصار هو القدوة فى هذا الشأن فإنه أفنى فيه عمره وأطاب به ذكره حتى لقد قال فيما يروى عنه : إنى جمعت كتابى هذا فى أربعين سنة وهو كان خلاصة عمرى .

ولقد صدق رحمه الله فإنه احتاج إلى تتبع أحاديث رسول الله ﷺ على كثرتها وآثار الصحابة والتابعين على تفرقها وتعددها حتى جمع منها ما احتاج إلى بيانه بطرق أسانيدها ، وحفظ رواتها ، وهذا فن عزيز شريف لا يوفق له إلا السعداء »[1] .

فهل يمكن القول بعد ذلك إلا أن أبا عبيد كما ذكر كثير من المؤرخين هو صاحب هذا الفن ورائده وصاحب السبق والأولية فيه .

لقد كانت مصادر أبى عبيد فى الأحاديث هم شيوخه الذين أخذ عنهم وسمع منهم ، أما فى اللغة فإن الناظر فى الكتاب يرى أنه يروى أيضا عن شيوخه الذين ثبت اتصاله بهم وسماعه منهم كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى ، وأبى عمرو الشيبانى ، والكسائى ، وغيرهم .

وعلى الرغم من كثرة الروايات ، ونسبة كل قول إلى صاحبه كما هو شأن أبى عبيد فى كل مصنفاته فإن شخصية أبى عبيد تظهر واضحة بما يضيف ، وبما يوفق ، وبما ينقد .

ويمكننا إيجاز منهج أبى عبيد هنا فيما يأتى :

١ — ذكر الحديث ، ثم ذكر سنده وإن كانت بعض النسخ لا تذكر السند مما جعل بعضهم يتشكك فى كونها ممثلة للكتاب ويرى أنها تمثل أحد

---

(١) المرجع السابق ٦/١ .

مختصراته ، ولقد أخبرنى بهذا أستاذى المحقق الأستاذ السيد أحمد صقر عندما عرضت عليه المخطوطة التى[1] حصلت عليها وقرأ على بعض الأحاديث بإسنادها على أنها منقولة من غريب الحديث لأبى عبيد ولم يخبرنى يوما عن مصدره ، وربما أيد هذا ما سبق أن نقلناه فى موضوع قراءة الكتاب على يحى بن معين وأحمد بن حنبل .

ومن الملاحظ أن النسخة المطبوعة لا يذكر فيها هذا السند وأن المصحح ينقل ذلك عن نسخة أخرى ويضعه فى هامش الصفحات .

٢ — شرح اللفظ أو الألفاظ الغريبة فى الحديث ببيان معناه وإيراد بعض مشتقاته .

٣ — الاستشهاد على ما سبق بالشعر ، والقرآن الكريم ، وبعض الأحاديث الأخرى .

٤ — نسبة الأقوال إلى أصحابها .

٥ — الموازنة أحيانا بين الأقوال وترجيح بعضها على بعض .

٦ — التعرض لبعض الفقهيات ، والبلاغيات ، وغيرها من ألوان العلوم . وإنه لمنهج جيد يستحق ما وصفه به ابن الأثير من أنه قد تميز بصفات هى :

« بيان اللفظ ، وصحة المعنى ، وجودة الاستنباط ، وكثرة الفقه[2] » وإنه ليستحق حقا أن يقال عنه إنه لولاه لاقتحم النــاس فى الخطأ[3] وأن يقال عن عقل صاحبه « إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا

---

(١) وهى مصورة عن نسخة كوبريللى ٤٥٥

(٢) النهاية فى غريب الحديث والاثير جـ١ ص٧

(٣) وفيات الاعيان ٣/٢٢٦

الكتاب لحقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش » وهذه عبارة عبد الله بن طاهر عندما عرض عليه هذا الكتاب وقد أتبعها بإجراء عشرة آلاف درهم لأبي عبيد في كل شهر حتى يتفرغ ذلك العقل للعلم والابداع(١) .

ولقد انتفع الناس بهذا الكتاب ايما انتفاع وظهرت له آثار عديدة ودارت حوله دراسات مختلفة .

وكان أول أثر لهذا الكتاب يتمثل في اتخاذه قدوة إذ فتح الله به بابا من العلم ولجه كثيرون من بعد أبي عبيد مثل ابن قتيبـــه ، وإبراهيم ابن اسحق الحربي ، وشجر بن حمدويه ، وأبي العباس ثعلب ، وأبي العباس المبرد ، وأبي بكر الانباري ، وأحمد بن حسن الكندي ، وأبي عمرو محمد ابن عبد الواحد صاحب ثعلب ، وأبي سليمان الخطابي الذي أثنى كثيرا على كتاب أبي عبيد وغيرهم كالزمخشري ، وابن الاثير والسيوطي صاحب التذييل(٢) وغيرهم من أهل العلم والفضل(٣) .

وقد أفاد منه فائدة كبرى أصحاب المعاجم التي ألفت بعده وقد صرح بهذا كثيرون منهم كالأزهري الذي يقول عنه : ولأبي عبيد من الكتب الشريفة كتاب غريب الحديث قرأته من أوله إلى آخره ، على أبي محمد عبد الله بن محمد ابن هاجك(٤) ... » .

ويقول أيضا : « فما كان في كتابي لابي عبيد عنه في غريب الحديث

---

(١) إنباه الرواة ٣ / ١٦

(٢) انظر : التذييل والتذنيب على نهاية الغريب

(٣) انظر : مقدمة النهاية لابن الاثير وانظر : المعجم العربي حـ ١ ص ٥٠ وما بعدها

(٤) تهذيب اللغة حـ ١ ص ١٤

فهو مما حدثنى به عبد الله بن هاجك عن إبن جيلة عن أبى عبيد(١) ، وفى التهذيب ترى نقولا كثيرة من غريب الحديث لأبى عبيد خاصة إن الأزهرى كان معروفاً بالاتجاه الدينى فى مصنفاته .

وكذلك ابن فارس الذى يقول فى مقدمة مقاييسه ذاكرا مراجعه « ومنها كتابا أبى عبيد فى غريب الحديث و « مصنف الغريب » حدثنا بهما على بن عبد العزيز عن أبى عبيد(٢) .

وقد دارت حوله كتب ودراسات عديدة تعرض بعضها لنقـــده أو الرد عليه .

وأشهر هذه الكتب كتاب إصلاح الغلط أو إصلاح غلط أبى عبيد فى غريب الحديث لابن قتيبة الذى شرحه أيضا أبو المظفر محمد بن آدم المتوفى سنة ٤١٤ هـ(٣) .

ومن إصلاح الغلط نسخة بأيا صوفيا تحت رقم ٤٥٧ ذكرها(٤) بركلمان ونسخه أخرى بالمكتبة الظاهرية بدمشق(٥) وقد امتلكت مصورة عن النسخة الاولى عن طريق صورتها بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

وقد نشر هذا الكتاب الاستاذ الفرنسى جيراد لوكنت فى مجلة كلية القديس يوسف ببيروت سنة ١٩٦٨(٦) ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٤

(٢) مقاييس اللغة ١ / ٤

(٣) ذكره محقق إنباه الرواة نقلا عن كشف الظنون . الانباه ٢/١٤٤ والكشف ١ / ١١٢

(٤) تاريخ الادب العربى ٢/١٥٦

(٥) ابن قتيبة اللغوى ص ٦٢

(٦) المرجع السابق ص ٦٢

وقد ذكر الأزهري هذا الكتاب وأشار إلى موقفه مما ذكره ابن قتيبة من أخطاء أبي عبيد فقال في حديثه عن ابن قتيبة : « ورد على أبي عبيد حروفاً في غريب الحديث سماها إصلاح الغلط وقد تصفحتها كلها ووقفت على الحروف التي غلط فيهـــا وعلى الأكثر الذي أصاب فيه فأما الحروف التي غلط فيها فإني أثبتها في موقعها من كتابي ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه »(١) .

وممن رد على أبي عبيد أيضاً في غريب الحديث أبو سعيد البغدادي الضرير ذكره الأزهري وقال : « ورد على أبي عبيد حروفاً كثيرة من كتاب غريب الحديث . . . وقدم عليه القتيبي فأخذ عنه »(٢) وربما كان لهذه العلاقة أثر في نقد القتيبي لأبي عبيد .

ومنهم أيضاً حسن بن عبد الله المعروف بلكذة أو لفذه ، وصعوداً وعلى بن حمزة البصري(٣) .

ومما ورد في نقده أيضاً ماجاء في تاريخ بغداد « وكتاب غريب الحديث فيه أقل من مائتي حرف سمعت والباقي قال الأصمعي وقال أبو عمرو وفيه خمسة وأربعون حديثاً لا أصل لها أدتى فيها أبو عبيد من أبي عبيدة معمر ابن المثنى »(٤) .

والظاهر أن النقد الذي ذكره ورد عليه صاحب طبقات الشافعية نقلا عن الأزهري كان موجهاً أيضاً إلى بعض مواد غريب الحديث .

---

(١) تهذيب اللغة ٣١/١

(٢) المرجع السابق ٢٤/١

(٣) المعجم العربي ٥٣/١

(٤) تاريخ بغداد ٤١٢/١٣

يقول ابن السبكى : حكى الأزهرى فى التهذيب عن أبى عبيد القاسم ابن سلام فى قوله ﷺ « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم » أن المراد بهذا القسم قوله تعالى : وإن منكم إلا واردها فإذا مر بها متجاوزاً لها فقد أبرأ الله قسمه ثم اعترض الأزهرى بأنه لا قسم فى قوله : وإن منكم إلا واردها فكيف يكون له تحلة . . . إلخ كلام الأزهرى ويرد ابن السبكى فيقول : قلت وهو اعتراض عجيب فإن القسم مقدر فى قوله وإن منكم لأن القسم عند النحاة يتلقى بالنفى والإثبات والتقدير : والله إن منكم إلا واردها ... الخ »(١) .

وقد جرت بعض الاختصارات لهذا الكتاب ذكر بروكلمان منها مختصر غريب الحديث للاستراباذى وهو أبو على الحسين بن أحمد وذكر أنه موجود فى برلين .

كما ذكر أن هناك اختيارات من غريب الحديث فى مكتبة كوبريلى ٤٥٥ وقد أشار أيضاً إلى أن كتاب الأجناس إنما هو من استخراج أبى عبيد نفسه من كتاب غريب الحديث(٢) .

وكما حاول بعضهم اختصاره فقد أضاف بعضهم إليه وزاد فيه وكان أهم هذه الزيادات « كتاب مازاد فى المصنف وغريب الحديث » لمحمد ابن أبى جعفر المنذرى الخراسانى اللغوى العدل أبو الفضل(٣) وأبو الفضل هذا هو صاحب الأزهرى وقد سبقت الإشارة إلى زياداته فى كتاب الأمثال

---

(١) طبقات الشافعية ٢٧٢/١

(٢) تاريخ الأدب العربى ١٥٦/٢

(٣) انظر : إنباه الرواة حاشية ص ٧١ وقد نقل المحقق ذلك عن ياقوت .

وقد جرت محاولات ودراسات أخرى لترتيب هذا الكتاب أو تقريبه نذكر منها :

— كتاب الغريبين لأبى عبيد الهروى الذى حاول فيه الجمع بين غريب القرآن وغريب الحديث وترتيب ذلك على الحروف الأصول وكان كتاب أبى عبيد فى غريب الحديث مما جمعه فيه(١) .

— تقفية غريب الحديث لعلى بن عبد الله بن محمد بن عبد الباقى بن أبى جرادة العقيلى أبى الحسن شيخ العلماء فى وقته بحلب .. يقول القفطى : ولم يكن من أهل العربية على التحقيق وإنما ذكرته هاهنا لأنه تعرض إلى غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام رضى الله عنه فقفاه على حروف فشارك بهذا التصنيف أهل اللغة ، فذكرته فى هذا المصنف وملكت هذا التصنيف وفيه ما فيه توفى سنة ٥٤٦ أو سنة ٥٤٨(٢) .

— كتاب تقريب المرام فى غريب القاسم بن سلام للشيخ الإمام محب الدين أحمد بن عبد الله الطبرى المتوفى سنة ٦٩٤ هـ كتبه على غريب الحديث لأبى عبيد مبوباً على الحروف(٣) .

— تقريب الغريبين لأبى عبيد وابن قتيبة جمعه واختصره الشيخ الفقيه أبو الفتح سليم بن أيوب الرازى(٤) .

كتاب تهذيب غريب الحديث للخطيب التبريزى ذكره صاحب إنباه

---

(١) انظر النهاية ١/٩

(٢) إنباه الرواه ٢/٢٨٥

(٣) كشف الظنون ١/٢١٨ والبلغة فى أصول اللغة ص ١١٣

(٤) فهرسة ماروا ه ابن خير عن شيوخه ص ١٩٥

الرواة قال : وقد روى أبو العلاء ولم يكن مكثرا وذلك أنى شاهدت بخط ابن كهبار الفارسى صاحب الخطيب أبى زكريا التبريزى والأخذ عنه — وكان ذكيا فاضلا محققا لما ينقله حاكيا عن صاحبه فى تصنيفه لتهذيب غريب الحديث لأبى عبيد .)

وقد ذكر التبريزى أنه قرأ غريب الحديث على أبى العلاء المعرى سنة خمس وأربعين وأربعمائة وأسنده أبو العلاء إلى على بن عبد العزيز صاحب أبى عبيد(١)

كتاب تصنيف غريب الحديث على حروف المعجم ذكره صاحب إنباه الرواه فقال عن عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة أبى محمد السعدى الأندلسى الشاطى وصنف غريب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم ، وجعله أبوابا . ومات سنة ٤٦٥ ﻫ فى شهر رمضان فى حران(٢)

وأخيرا فقد صدق مارواه أبو على القالى غـــير مرة قال : قال لنا أبو بكر بن دريد وابن الأنبارى : كتاب الألفاظ بضاعة وكتاب اصلاح المنطق بضاعة ، وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة بضاعة ، وكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد بضاعة ، وكتاب شرح غريب الحديث له بضاعة(٣)

---

(١) إنباه الرواه ١ / ٦٩

(٢) إنباه الرواه ٢ / ١٨٣

(٣) فهرسة مارواه عن شيوخه ٣٢٦

الغريب المصنف :

وهو أعظم كتب أبي عبيد وأجلها عند العلماء ذكرا يقول الأزهري :

وأخبرني أبو بكر الأبادي عن شمر أنه قال : ماللعرب كتاب أحسن من مصنف أبي عبيد(١) ، وفي تاريخ بغداد : وليس له كتاب مثل غريب المصنف ،(٢) بل إن أبا عبيد نفسه يبجل هذا الكتاب ، ويعبر عن قيمته فيما يرويه علي بن محمد ابن وهب المشعري عن أبي القاسم بن سلام قال : سمعته يقول :هذا الكتاب يعني غريب المصنف أحب إلى من عشرة آلاف دينار »(٣) .

وإذا كان القدماء قد قالوا هذا وغيره فإن المحدثين أيضا قد أدركوا قيمة هـــذا الكتاب ، وعبروا عن تقديرهم له ، كل حسب معرفته به ، أو حاجته إليه .

فقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أبا عبيد فقال . أما أبو عبيد فيعد ممن ساهموا فى جميع الألفاظ ونشأة المعاجم بكتابه الضخم الذى لا يزال مخطوطا حتى الآن وهو الغريب المصنف » وهو معجم مرتب على حسب المعانى(٤)

ويذكر الدكتور حسين نصار فضل أبى عبيد فى هذا الكتاب ويشير إلى أن شهرته - على الرغم مما به من تصحيفات قد طبقت الآفاق »(٥)

---

(١) تهذيب اللغة حـ ١ ص ٢٠

(٢) تاريخ بغداد حـ ١٢ ص ٤١٣

(٣) معجم الأدباء حـ ١٦ ص ٢٦٠ وانظر الفهرست ص ١١٣

(٣) دلالة الألفاظ ص ٢٢٦

(٥) المعجم العربى حـ ١ ص ١٠٨

ويقول الثالبى : « معجم غريب جليل على كثيرة عيوبه يعد مصدراً وأماً من أمهات اللغة على عدم إحاطته »(١) .

أما المستشرق الكرنكوى فإنه يقول عنه : هذا ذخيرة اللغة العربية على أسلوب غير المعاجم ولكنه مرتب على مثال كتاب المخصص »(٢)، ولو عكس لكان أفضل إذ أن المخصص هو الذى رتب على مثاله .

من هذا وغيره يتضح الإحساس عند الجميع بأهمية هذا الكتاب وعظم خطره ، ومن ثم فقد كان جديراً بتلك الدراسة الخاصة التى أوليتها له أسأل الله أن يعين على إخراجها قريباً .

ومع هذا فإننا لا نرى بأساً فى إلقاء نظرة مناسبة عليه فى هذا المقام .

لقد اختلف القدماء فى تسميته على نحو ما حدث لكتاب غريب الحديث ولغيره من الكتب القديمة كما أسلفنا ، وإن كان الاختلاف هنا أوسع فقد رأينا له فيما اطلعنا عليه ، حوالى ستة أسماء متقاربة غالباً وهى : الغريب المصنف : كما عند ابن خلكان ، والسيوطى ، وكثير من المحدثين .

٢ — غريب المصنف ، كما هو عند ابن النديم ، والبغدادى ، والسيوطى .

٣ — المصنف : كما عند الأزهرى ، والزبيدى ، والسيوطى أيضاً .

٤ — المؤلف : كما هو عند الأزهرى .

٥ — مصنف الغريب : ذكره ابن فارس ، والزمخشرى .

---

(١) المخصص لابن سيده : دراسة ودليل ص ٢٤

(٢) تذكرة النوادر ص ١٠٧

٦ — غريب اللغة : كما ذكره الفيومى فى المصباح المنير .

ويلاحظ من هذا أن بعضهم كان يذكره بأكثر من تسمية على نحو ما نراه عند السيوطى، والأزهرى ، وأن التسمية الأولى هى الأكثر شيوعا والأعم استعمالا وبخاصة عند المحدثين .

والظاهر أن هذا الاسم لم يكن جديدا على أبى عبيد فقد سبق إلى استعماله بعض أساتذته مثل أبى عمرو الشيبانى، كما استعمله أيضا بعض علماء الحديث واللغة كقطرب ، والقاسم بن معن الكوفى ، ولكننا لا نكاد نلمحه عند المصنفين بعد أبى عبيد .

وقد سبق أن ذكرنا المعنى اللغوى لكلمة الغريب ، ويمكن أن نضيف هنا ما ذكره التهانوى عن هذا المعنى إذ يقول : الغرابة كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال سواء كانت بالنظر إلى الأعراب الخلص أو بالنظر إلينا ، وتلك الكلمة تسمى غريب ويقابله المعتاد ، ويرادفه الوحشى، فالغريب منه ما هو غريب حسن وهو الذى لا يعاب استعماله على الأعراب الخلص ، لأنه لم يكن ظاهر المعنى ، ولا غير مأنوس الاستعمال عندهم ، وذلك مثل : شرنبث ، واشمخر ، واقمطر ، وهى فى النظم أحسن منها فى النثر ومنه غريب القرآن والحديث ، وهذا غير مخل بالفصاحة ، ومنه غريب قبيح وهو الذى يعاب استعماله مطلقا أى عند الخلص من الأعراب وغيرهم »(١) .

ويزيدنا الزمخشرى توضيحا وقربا من هدفنا وهو معرفة معنى هذا الاسم فيقول رحمه الله : « وتكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام ونوادره ، وتقول : فلان يعرب كلامه ويغرب فيه ، وفى كلامه غرابة وغرب كلامه ،

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون م (٢) ١٠٨٦

وقد غربت هـــذه الكلمة أى غمضت فهى غريبة ، ومنه مصنف الغريب وقول الأعرابى : ليس هذا بغريب ولكنكم فى الأدب غرباء (١) » .

وعلى هذا فإننا نستطيع القول بأن الغريب المصنف ، إنما يعنى الكلام الغامض البعيد عن الفهم، الذى جعل أصنافا ، وميز بعضه عن بعض ورتب بحيث صار لكل صنف منه ، مكان أو موضع خاص به .

وعندما يستقر هذا الفهم نكون قد عرفنا من موضوع هذا الكتاب ، ووقفنا على الغرض العام والهدف الأساسى له .

فقد أراد أبو عبيد أن يجمع الألفاظ الغريبة فى نظره فى كتاب واحد ، مصنفا إياها على حسب موضوعاتها ومعانيها ، وتلك طريقة من طرق المعاجم شرعها أبو عبيد ، ونسبت إليه على الرغم من أنه مسبوق إليها فى العربية وغيرها ، لكن الفضل يرجع إليه فى إحيائها ، وحسن تنظيمها ، والارتقاء بها إلى ما يناسب الفكر والمنطق .

فلا عجب بعد ذلك أن ننسب إليه مدرستها المعجمية وأن يعد بحق كما سيأتى الرائد الحقيقى لهذا الصنف من التأليف (٢) .

والظاهر أن أبا عبيد قد بدأ مبكرا ، فى تصنيف هذا الكتاب وأنه اتبع فيه المنهج الذى سبقت الإشارة إليه فى الحديث عن كتابه الآخر « غريب الحديث » فقد سلك طريقة وضع العناوين أو الأقسام والأبواب أولا ، ثم ملء تلك « الخريطة » بما يفتح الله به من أفواه العلماء والرواة .

وقد وردت عنه نصوص تشبه تماما ، تلك التى سقناها فى الحديث عن

---

(١) أساس البلاغة « غرب » ج ٢ ص ١٥٩ ط دار الكتب .

(٢) أنظر مقدمة الصحاح ص ٩٩ .

الكتاب السابق ، من أنه قضى فى تصنيفه أربعين سنة أو ثلاثين سنة ، وأنه ربما كان يستفيد أو يسمع الحرف أو الفائدة يعرف لها موضعها من الكتاب ، ويضعها فيه ، فيبيت تلك الليلة فرحا مسرورا .

وهذا لا يمكن حدوثه إلا إذا كانت للمؤلف خطة موضوعة وطريقة مرسومة ، يسير على هديها ، وينفذ أغراضها وأهدافها .

ويقولون إنه أهداه - كعادته - إلى أحد الطاهريين وأنه أجازه عليه ، يقول أبو الطيب اللغوى : أخبرنا محمد بن عبد الواحد قال : أخبرنا المعيدى قال : قال أبو عبيد : جمعت كتاب الغريب المصنف فى ثلاثين سنة ، وجئت به إلى محمد بن عبدالله بن طاهر فأمر لى بألف دينار (١) » .

وهناك روايات أخرى تدل على أن المهدى إليه هو طاهر بن الحسين وأن الإهداء تم إثر عودته من خراسان ليحمل أبا عبيد معه إلى سر من رأى (٢) .

ويدفعنا قوله « من أفواه الرجال » إلى التساؤل عن مراجع أبى عبيد ومصادره فى هذا الكتاب ؟ ذلك أننا نلاحظ أنه لم يقل إنه جمعه من كتب الرجال أو رسائلهم أو قوائمهم ، وإنما من أفواههم وأبو عبيد مصدق عند العلماء والرواة عنه كثيرون وموثوق بهم .

ومعنى هذا أنه لا صحة لما ذهب إليه ابن النديم من أنه أخذ كتابه عن النضر بن شميل (٣) .

وقد كفانا الدكتور حسين نصار الرد على ذلك فقال بأنه ليس من

---

(١) مراتب النحويين / ٩٣ .

(٢) إنباه الرواة ١٥/٣ .

(٣) الفهرست ٨٣ .

العدل لأن أبا عبيد الذى يلتزم ذكر رجاله ، ويصرح بأسمائهم ، لم يذكر لنا النضر ، ثم يقول أيضا : « ولا مانع عندنا أن يكون نظام الغريب مشابها لنظام كتاب النضر وبالرغم من ذلك فإن فهرس ما يضمه من كتب يبين بوضوح مدى الإضافات والموضوعات الجديدة التى ضمها « الغريب المصنف ولم تكن فى « صفات النضر » (١) .

وأضيف إلى هذا أن أحدا لم يذكر حدوث لقاء أو اجتماع بين أبى عبيد والنضر بن شميل وقد كانا متعاصرين حتى نقول بأنه روى عنه كتابه ، على الأقل .

كذلك لا يمكن للعقل العلمى أن يقبل تلك الدعوى التى أشاعها أبو الطيب اللغوى بقوله عن أبى عبيد : « وأما كتابه المترجم بالغريب المصنف فإنه أعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بنى هاشم جمعه لنفسه ، فأخذ كتب الأصمعى فبوب ما فيها وأضاف إليها شيئا من علم أبى زيد ، وروايات عن الكوفيين » (٢) .

إذ أن أبا الطيب لم يذكر لنا مصدر هذه الدعوى ، وهو المعروف منهجه بالسند والرواية ، كذلك فإنه لم يوضح لنا اسم ذلك الرجل الهاشمى ، كذلك فإنه يروى بعد ذلك أن أبا عبيد جمع الكتاب فى ثلاثين سنة وأنه أجيز بألف دينار ، ولو كان معتمدا على ذلك الهاشمى ما استغرق كل هذا الزمن فى تأليف كتابه وما أجيز عليه ، فهل هو التناقض لم تحس به أبا الطيب؟ وهل يجاز المعتمد على كتب غيره ، ويوصف بحسن التصنيف؟ وبالأوصاف التى سبق ذكرها ؟ وكيف تصف أنت نفسك أبا عبيد بالثقة المأمون وهو لم يذكر اسم ذلك الهاشمى ولم يشر إلى كتابه مع أن الجميع يعرف منهج

---

(١) المعجم العربى ٢٠٨/١ .

(٢) مراتب النحويين ص ٩٣ .

أبى عبيد الذى يصل إلى حد المبالغة فى نسبة الأقوال إلى أصحابها ! أليس هو ما يروى عنه « من شكر العلم أن تستفيد الشىء فإذا ذكر لك قلت : خفى على كذا و كذا ولم يكن لى به علم حتى أفادنى فلان فيه كذا و كذا فهذا شكر العلم » ! (١) .

إن أباعبيد — كما تعلم أبا الطيب — كان أفضل من طبق منهج الرواية عند المحدثين على رواية اللغة ، وكان الإسناد فى هذا المنهج مكانته كما يشير إليه الأستاذ أحمد أمين (٢) .

ثم كيف يسكت علماء اللغة على تلك الفعلة من أبى عبيد ويثنون عليه وينقدون بعض مروياته ، لكنهم لايذهبون إلى ما ذهبت إليه!؟

إننى أكاد أشم فى هذه الدعوى رائحة التعصب البصرى من أبى الطيب « إذ كان مشهورا بالعصبية المذهبية » كما يذكر الدكتور مكى الأنصارى ، وقد كانت تلك عادته مع كل من لم يدر فى فلك علماء البصرة(٣) وأبو عبيد فى نظره من أعلام الكوفة ، فلا أقل من أن نعجزه فى ذلك العصر الذى كان للعصبية المدرسية أثرها فى هدم كل بنيان متين .

إن أبا عبيد كان فى غاية الصدق عندما ذكر أنه أخذ كتابه وكل كتبه من أفواه العلماء ، وقد ذكرهم فى كتابه ، وذكر السماع منهم ، وحدث التاريخ بلقائه بهم ، ورحلته إليهم ، وشغفه بالاجتماع بهم ، وسجل علماء السند والجرح والتعديل أفضل الشهادات له ونقـــل عنه أئمتهم على نحو ما أسلفنا ، فمال هذه التهم لا تأتى إلا من أصحاب الصناعة وأهل الشركة فى البضاعة ! وقديما ذكروا أن الحسد يشيع فى أوساط العلماء .

---

(١) المزهر ٣١٩/٢ وانظر طبقات المفسرين ق ٢٠١ ب .

(٢) ضحى الإسلام ٢٥٨/٢ .

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة ص ٣٦٧ .

كذلك لا يقبل البحث العلمى تصديق ما أشار إليه بعض العلماء من أن أبا عبيد قد أخذ مادة كتابه من تلك الكتب أو الرسائل الصغيرة التى ألفها أساتذته ورويت عنهم فيما بعد ، وأن دوره بناء على ذلك لم يكن غير التأليف بين تلك المواد المتشابهة المختلفة المصادر مع ما فى ذلك من مشقة وما يقتضيه من فن ومهارة .

ذلك أننا لم نر اسمه بين رواة أى رسالة من تلك الرسائل التى وصلت إلينا ، وأننا لم نر اسم رسالة أو كتاب منها فى الغريب المصنف الذى هو مبنى على أقوال وروايات أصحابها .

وأن بعض هؤلاء لم يعرف لهم رسالة أو كتاب ، وأن روايات الكتاب تشيع فيها عبارات الدقة والتشكك . مثل : فلان أو فلان ، وفلان مثله أو نحوه ، وفلان أو غيره ، والناقل عن الكتب لا يحتاج إلى ذلك التشكيك .

كذلك نلاحظ أن الشيخ عندما يروى عن أحد أساتذته يذكر أحياناً الواسطة بينه وبينه كقوله : الفراء . عن الكسائى : تحفة الجبل أعلاه بالثاء ، قال الفراء : الذى سمعت أنا بالنون .

وقد نسى هؤلاء الذين يذهبون إلى أخذ شيخنا من الكتب أن تلك الرسائل الصغيرة لم تكن كتباً مؤلفة شائعة وإنما هى عبارة عن روايات أو محاضرات يلقيها الشيوخ ويكتبها تلامذتهم كل بطريقته . ومن ثم كان الأخذ منها مباشرة يعد عيباً فى حياة أصحابها . وفى تلك العصور التى تميزت بالسماع والرواية ، ولو أخذ أبو عبيد من تلك الصحف لأخذه على ذلك العلماء ولم يوثقوه هذ التوثيق .

ونسوا أيضاً أن بعضهم كان يضن بما كتب على الناس ويخفيه على نحو ما يروى عن الأصمعى وعن ابن أخته الذى استأثر بكثير من دواوينه وكتاباته .

والحق فى كل هـذا أن أبا عبيد الذى رووا جميعاً أنه جالس أو سمع أو روى عن أولئك العلماء الذين ذكرهم فى كتابه قد أخذ كتابه سماعا ومشافهة — كما قال — من أولئك الرجال .

ومن يوازن بين ما جاء فى أبواب الغريب المصنف وما جاء فى تلك الكتب أو الرسائل التى وصلت إلينا مما ينسب إلى شيوخ أبى عبيد يتبين له — بكل وضوح — أن أبا عبيد لم يأخذ حقاً من تلك الرسائل التى تحمل عناوين مثل عناوين أبوابه .

ولقد قمت ببعض هذه الموازنات وتأكدت من صدق ما ذهبت إليه .

ولنكتف هنا بذكر بعض ما لاحظته من الموازنة بين كتاب الخيل للأصمعى الأستاذ الأول لأبى عبيد وأكثر الرواة ذكرا فى الغريب المصنف. وما ذكره شيخنا عن الخيل فى الغريب المصنف :

١ — كتاب الخيل للأصمعى مطبوع يشبه المخطوط فقد طبع بتحقيق المستشرق الألمانى «هفنر» فى فينا سنة ١٨٩٥ م .

ومع هذا فلم أر منه فى دار الكتب إلا نسخة وحيدة اضطررت إلى نقلها وهو يقع فى ٢٩ص ألحق بها كتابات بالألمانية ومعجم فى حوالى ٣٣ص، وترجع روايته إلى أحد شخصين هما عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه ، وأبى حاتم عن الأصمعى ، ولا يذكر هنا أبو عبيد .

ويبدأ الكتاب بالحديث عن حمل الخيل ، ونتاجها ثم ولادتها وأسنانها ، وأسماء أعضائها وإن لم يضع عنواناً لذلك ، ثم يتحدث عما يستحب فى الخيل تحت عنوان : ما يستحب فى الخيل ، ثم ما يكره فى الخيل ، ثم « صفة مشى الخيل ، وعدوها ، ثم ألوان الخيل ، ثم « ومن الشيات » ، ثم يختم الكتاب بالحديث عن بعض أسماء الخيل ، المشهورة وأنسابها وأصحابها وطرفان من أخبارها كل ذلك بدون عنوان له .

فإذا ما نظرنا فى الغريب المصنف نجد أنه عقد كتاباً للخيل ذكر فيه الأصمعى حوالى ١٣ مرة مما جعل باحثاً كالدكتور حسين نصار يذكر أنه اعتمد فيه إلى حد كبير على الأصمعى .

و كانت موضوعات أبى عبيده فى هذا الكتاب هى :

بعض صفات الخيل ، نعت خلق الخيل ، باب الجرى والعدو من الخيل ، أصوات الخيل ، باب مسير الخيل ، وجماعاتها إذا غارت ، نعوت كتائب الخيل ، باب عيوب الخيل وغيرها من الحافر ، باب قيام الخيل وغيرها من الحافر ، باب قيام الخيل ، باب الجانب الوحشى والإنسى من الدواب ، باب شدادة الخيل .

ومنه يتبين أن هناك فرقا واضحا بين موضوعات كل من الأصمعى وأبى عبيد .

هذا من ناحية الموضوعات والتبويب فإذا ما اطلعنا على مادة كل من الكتابين فإننا سنرى اختلافا واضحا أيضا بين كلام الأصمعى فى كتابه وما رواه عنه أبو عبيد فى الغريب المصنف .

ويتمثل هذا فى وجود عبارات منسوبة للأصمعى فى الغريب المصنف وليس لها أثر فى الكتاب المنسوب إليه مثل قول أبى عبيد : الأصمعى: من أصوات الخيل الشخير والنخير والكرير قال : فالشخير من الفم ، والنخير من المنخرين ، والكرير من الصدر .

ولا نستطيع القول بأن ذلك من اختلاف الروايات على الأصمعى لأن الأصمعى لم يعقد فى كتابه أصلا بابا لأصوات الخيل كما فعل أبو عبيد .

وهناك فى الغريب المصنف عبارات منسوبة للأصمعى ، وهى فى كتاب

الخيل بمعناها فقط ، والمعروف عن أبى عبيد أنه كان حريصاً جداً على النص لدرجة أنه كان يقول كثيراً فى رواياته «مثله أو نحوه» .

ومن تلك العبارات ما جاء فى الغريب المصنف :

قال الأصمعى : والساطى البعيد الشحوة وهى الخطوة وقد سطا يسطو(١)

وفى كتاب الأصمعى : فإذا كان رغيب الشحوة كثير الأخذ من الأرض قيل هذا ساط من الخيل(٢) ، ويلاحظ أيضا ذكر الفعل فى رواية أبى عبيد عن الأصمعى وخلو عبارة الأصمعى منه .

وهناك أمثلة كثيرة لعبارات رواها أبو عبيد عن الأصمعى ، فإذا طلبتها فى كتابه وجدتها متفرقة فى أكثر من موضع مما يدل على أن أبا عبيد لم يأخذها من كتاب الأصمعى، كذلك نرى اختلافا فى ذكر الشواهد حيث نرى أبا عبيد يغفل فى رواياته الأصمعية شواهد كتاب الأصمعى، مع ما عرف عن أبى عبيد من دقة النقل والأخذ. ومن صور ذلك: الغريب المصنف: الأصمعى: المعدان موضع رجلى الراكب(٣) كتاب الخيل : وفى الفرس المعد، وهو موضع رجل الفارس وما يحتث به الفارس وفيه المركل وهو مثل المعـــد سواء قال : (الرجز) :

فابى المعدين وأى نظار محجل لاح له خمار(٤)

---

(١) الغريب المصنف ٤/١

(٢) كتاب الخيل ص٢٠

(٣) ص ١١٥

(٤) كتاب الخيل ص ١٣

وواضح من الأمثلة السابقة ما فى عبارات الأصمعى من اختلاف أيضا فى الزيادة والنقصان بين كتب الخيل والغريب المصنف .

ومن كل ما سبق يتأكد لنا أن أبا عبيد لم يعتمد على هذا الكتاب المروى عن الأصمعى ، وإن كان قد اعتمد كثيراً — كما قلنا على صاحبه — ولا يكون ذلك إلا عن طريق الرواية عنه ، والسماع منه ، وهذا ماقصدنا إلى توضيحه وإظهاره.

ومثل ذلك يقال بالنسبة لكل رواة أبى عبيد الذين وصلت إلينا كتب أو رسائل لغوية منسوبة إليهم .

ومما يؤكد — أيضا — أن أبا عبيد لم يكن يأخذ من تلك الكتب أن على بن حمزة البصرى الذى نبه على أخطاء أبى عبيد ذكر أن سبب هذه الأخطاء يرجع إلى أن أبا عبيد كان يعتمد على الكتابة عن الشيوخ فأصابه التصحيف من هذه الناحية إذ أن خطه لم يكن جيداً ، ومعنى هذا أن أبا عبيد لو كان ينقل عن الكتب ما وقع فى هذه الأخطاء ، أو كانت أخطاؤه تنسب إلى من ينقل عنه .

هذا وإن فى قائمة مصادر أبى عبيد لدليلا آخر على صدق دعواه وأنه لم يأخذ كتابه من الكتب وإنما من أقوال العلماء ورواياتهم ، ويمكننا أن نرتب هذه القائمة على أساس مرات ورود أسماء المذكورين فيها ترتيبا تنازلياً على النحو التالى :

م	المصدر	عدد مرات وروده	م	المصدر	عدد مرات وروده
١	الأصمعى	١٠٠٠	١٦	أبو الوليد	٦
٢	أبو زيد الأنصارى	٦٠٠	١٧	أبو شنبل(١)	٣
٣	الكسائى	٥٤٣	١٨	أبو جحوس	٢
٤	أبو عمرو الشيبانى	٥٣٠	١٩	ابن أبى حفصة	٢
٥	الفراء	٣١٧	٢٠	أبو فقعس	٢
٦	الأموى	٢٤٢	٢١	أبو زياد الأعرابى	٢
٧	أبو عبيدة	١٧٢	٢٢	أبو القعقاع	١
٨	الأحمر	١٤٧	٢٣	ثور النمرى	١
٩	اليزيدى	٥٢	٢٤	ابن قنان	١
١٠	العديس الكنانى	٢٩	٢٤	خالد بن كلثوم	١
١١	أبو الجراح العقيلى	٢٥	٢٦	أبو علقمة الثقفى	١
١٢	أبو زياد الكلابى	١٥	٢٧	أبو طيبة الأعرابى	١
١٣	أبو الحسن الأعرابى	١٠	٢٨	أبو العالية الرياحى	١
١٤	ابن الكلبى	٩	٢٩	أبو البيداء	١
١٥	القنانى	٩	٣٠	الواقدى	١

(١) لم أره فى المصادر التى رجعت إليها والذى رأيته أبو شبل العقيلى ذكره ابن النديم ص ٧٤

وقد وردت بعض المصادر التى يبدو أنه لم يأخذ عن أصحابها مباشرة كما يظهر من أقواله وهى على النحو التالى :

أبو عمرو بن العلاء ، الخليل بن أحمد ، الرؤاس ، القاسم بن معن بن أبى الزناد ، المفضل ، معاذ ، خلف الأحمر ، العكلى .

ومن الواضح أنه لم يأخذ كثيرا عن هؤلاء حيث إن هذه الأسماء لا تتردد إلا قليلا جدا فقد لا يتجاوز أكثرها ورودا مرات ثلاث .

هذا وتشيع فى أبواب الغريب المصنف ظاهرة تراها كثيرا فى كتب ومعاجم اللغه وهى الاستغناء أحيانا عن ذكر اسم المصدر والاكتفاء بنسبة القول أو الشرح إلى ما يعبر عنه بعبارة مثل : « غيره » ، « غيرهما » «غيرهم» ، « غير واحد » ، «غير واحد ولا اثنين» ، « بعضهم» ، « بعض بنى فلان » ، وقد نسبت إلى ماعبر عنه بلفظ غيره » وحده مايقرب من ٥٦٠ قولا أو شرحا .

وفى هـــذه الظاهرة دلالة على صدق الرواية ، وأمانة العقل ، وقد رأيناها فى المخصص لابن سيده وغيره من كتب اللغة ، ولم تر أحدا فيمن أطلعنا على أقوالهم يعيب هذا أو يطعن به على من من يستعمله ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى عوامل النسيان ، أو الرغبه و الإيجاز ، أو شهرة القول عند أرباب التخصص .

ولقد برع أبو عبيد فى استخدام هذه المصادر الكثيرة ، وظهر هـذا فى تمكنه من هندسة بنائه ، وتنظيم كتابه ، وجعل الوحدة والترابط فى الباب لا تتبع فقط الترجمـــة أو العنوان ، وإنما تنشأ أيضاً من ذلك التسلسل البديع ، على الرغم من تعدد أصحاب الأقوال ، واختلاف آرائهم أحيانا .

وقد استخدم الشيخ كل صور الترابط فى تلك العملية الكبيرة التى قام

بها ، وفى هذا الحشد الضخم من الكلمات والتعريفات المختلفة المصادر ، فجعلها تبدو أمامك يؤكد بعضها بعضا ، أو يكمل أحدها الآخر ، أو يضيف بعضها جديدا فى الموضوع ، وقد يخالف أحدها الآخر ويناقضه أو يفسره ويوضحه بالشرح أو بالشاهد... كل ذلك كما قلنا أكثر من مرة ، فى دقة ، وترابط ، وتماسك عجيب وأمانة علمية تجعله يعبر عن شكه إذا نسى اسم المصدر أو عرض له عارض الظن فى نسبة قول أو شرح أو شاهد إليه .

* * * *

وقد قسم أبو عبيد كما سبقت الإشارة إليه كتابه إلى أقسام جعل لكل قسم منها موضوعا عاما ، وأطلق عليه لفظ كتاب ثم قسم كل كتاب من تلك الكتب إلى أقسام تبعا لما يتفرع عن موضوعه من قضايا وموضوعات صغيرة ، وأطلق على تلك الأقسام الصغيرة نسبيا مصطلح الباب ، ثم حشا كل باب بالألفاظ والأقوال والشواهد ، التى تخدم موضوعه وهدفه .

هذا هو التصور الذى يؤخذ من النظرة العامة فى غريب أبى عبيد ، لكننا نلاحظ فيما تحت أيدينا من نسخ هذا الكتاب الذى لم يطبع بعد بعض التجاوزات أو الاضطرابات أو النقص فى هذا التخطيط والمنهج العام ، نظرا لما مر به الكتاب من ظروف جغرافية وتاريخية مختلفة .

وقد أدى هذا الى اختلاف أقوال الباحثين أحيانا فيما يتصل بخطة الكتاب ، وتقسيمه ، وتبويبه . فالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار مثلا يذكر أن الغريب المصنف يشتمل على اكثر من ثلاثين كتابا ويؤخذ من كلامه أنه قد اعتمد على مصورة المجمع اللغوى المأخوذه عن نسخة

دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١[١] ، أما الأستاذ الطالبي فإنه يذكر أن الكتاب يتألف من ٢٧ كتابا وقد ذكرها وأوضح أنه اعتمد فى ذلك على نسخة تونس المكونة من ٦١٠ ص[٢] ، ويذكر الدكتور حسين نصار أنه اعتمد على نسخة المجمع اللغوى المصورة عن نسخة مكتبة الفاتح بتركيا وهى تضم ٦٧٠ ص وتشتمل على أكثر من ثلاثين كتابا فى موضوعات مختلفة ، ويلاحظ أن الدكتور نصار قد استخدم مصطلح « كتاب » ولم يذكر مصطلح « باب »[٣] .

وقد شاء الله أن يكون اعتمادى فى هذا على نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١ لغة ، ومن العجيب أنى لم أجد مصطلح « كتاب » يطلق إلا فى أحد عشر موضعاً تقريبا ، أما فى غير ذلك من العناوين والموضوعات فإنه يذكر لفظ باب ... أو يذكر العنوان دون ذكر لفظ كتاب أو باب ، ومن أمثلة المواضع التى يذكر فيها لفظ كتاب قوله : كتاب النساء ، كتاب اللباس ، كتاب الأطعمة ، ومن أمثلة ذكره لفظ الباب على الموضوعات الكبيرة قوله : باب تسمية خلق الانسان ونعوته ، باب الخيل والسلاح ، باب الأمراض ... ومن أمثلة تركه لفظ كتاب وباب معا ما جاء فى قوله : أمثلة الأسماء ، « أمثلة الأفعال » وهكذا .

والحق أنى لم أجد فيما حاولت الاطلاع عليه نصاً قديماً يحدد لنا عدد الكتب فى الغريب المصنف ، ولكن الذى وجدته هو نص يحدد لنا عدد أبواب الكتاب . فقد ذكر صاحب الفهرست « وعدد أبوابه على ما ذكر

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات ص ١٠١ ، ١٢٨

(٢) المخصص لابن سيده : دراسة ودليل هامش ٣ ص٢٤ وما بعدها

(٣) المعجم العربى ٢٠٧/١

ألف باب ، وواضح من هذه العبارة أنه غير متأكد من هذا ، وقد حاولت تصور الأقسام التي يمكن أن تسمى كتباً معتمداً على نسختي ومستأنساً بما ذكر عن النسختين : التونسية والتركية فوجدت أن كتب الغريب المصنف يمكن أن تصل إلى اثنين وثلاثين كتاباً ، وكم كنت أود أن أذكرها لولا ضيق المقام ، ويلاحظ أن هناك بعض الاضطراب في هذا التقسيم ، ربما أشرنا إليه بعد حديثنا عن أبواب الكتاب .

فقد ذكر صاحب الفهرست كما مضى أن عدد الأبواب — فيما ذكر — ألف باب ، وقد رويت هذه العبارة وشاعت بين كثير من الباحثين حتى رأيناها عند بروكلمان ، وجورجي زيدان وغيرهم من المحدثين ، وقد حاولت إحصاء هذه الأبواب في نسختي ١٢١ لغة فرأيت فيها ٨٨٣ باباً واضحة لكل من يطلع على الكتاب ، لكن كلام صاحب الفهرست جعلني أعيد النظر فوجدت أن هناك اختلاطاً جعل بعض الأبواب تدخل في غيرها خطأ من الناسخ .

ويمكن للقارىء الواعي ملاحظة ذلك في مظاهر كثيرة ترد في هذه النسخة ، مثل عدم التناسب في الكلام ، أو عدم التناسب بين العنوان والكلام الذي تحته ، ومثل سقوط العناوين أحياناً ، أو سقوط الباب كله من النسخة ، على نحو ما أرشدني إليه الأزهري فقد نقل عن باب ادعاء الرجل علماً لا يحسنه(٢) ، فلما رجعت إلى النسخة لم أجد فيها باباً بهذا العنوان مما يؤكد أنه قد سقط من الناسخ ، ومما يؤكد لنا سقوط بعض الأبواب أنني عثرت على أبواب في النسخة التونسية لم تذكر في نسختنا .

وفي كل هذا إشارة إلى أن الكتاب كان يحتوي فعلا على ذلك العدد

---

(١) الفهرست ١١٣

(٢) تهذيب اللغة ١/٩٧

الذى ذكره ابن النديم ، وأن من المأمول أن يظهر ذلك عند تحقيقه وخروجه إلى عالم النور . ومهما يكن فإن أحداً لا يستطيع إنكار ماسبقت الإشارة إليه من حدوث التداخل بين الكتب والأبواب ، ومن عدم الدقة فى التقسيم ، حيث تذكر أبواب فى كتب لا تمت لها بصلة ، وتذكر أبواب متفرقة دون جامع يردها إلى أصل واحد : كما يلاحظ على الأبواب نفسها ظهور التعميم فى عناوينها وحدوث التكرار أحياناً فيها ، وسقوط بعض أوائلها ، ووقوع بعض التقديم والتأخير فيها ، وغير ذلك مما يدل على عدم اتساق وانتظام التقسيم والتبويب ، ومن المعقول أن ينسب كثير من ذلك إلى إهمال النساخ ، وعدم دقتهم ، لكن من المعقول أيضاً ألا نبالغ فى تنزيه أبى عبيد عن الخطأ وأن نرجع بعض تلك المظاهر غير المرضية — فى نظرنا — إلى اعتماد الشيخ على الاستطراد ، وتتابع الخواطر ، والحرص على تسجيل كل شىء ، وعدم وضوح العلاقات بين الموضوعات ، إلى غير ذلك مما كان يشيع فى مؤلفات ذلك العصر ومما يمكن الاعتذار عنه بغلبة الحسنات فى تلك الأعمال الرائدة .

أما حشو الأبواب فقد تم بتلك الألفاظ الغريبة المروية عن الأعلام السابقين ، كل باب على حسب ما فتح الله به من كلمات تتصل به ، ومن ثم فقد ظهر التفاوت الكبير فى حجم تلك الأبواب ، ولم يكن بعيداً أن يشتمل أحدها على كلمة واحدة مثل باب « فعليل » إذ لم يذكر فيه إلا لفظ « شرحبيل » اسم رجل ، مما جعل الناسخ يضيفه إلى باب أفعولة فلا يعرف هذا إلا الباحث المدقق .

وهناك باب لا يذكر فيه غير بيت من الشعر وهو باب الغيظ والبيت هو قول صخر الغى :

فلا يقعدن على زخة ونضمر فى القلب وجدا وخيفا

وإن كنا نشك فى هـذا ونرى أنه ربما سقط منه كلام لم يتنبه إليه أحد .

ويلاحظ أن هذا الحشو فى الأبواب لم يكن يتبع نظاماً معينا فالمهم أن تذكر الكلمات والألفاظ المتصلة بالموضوع حسب توارد الخواطر . ثم يقوم المؤلف بشرح تلك الألفاظ أو التعريف بها .

وقد يترك هذا الشرح أو التعريف عند عدم الحاجة إليه على نحو ما فعله مع كلمات مثل الأرجوحة ، والأغلوطة ، والأحدوثة وغيرها ، وقد يتركه أحيانا مع الحاجة إليه على نحو مافعله فى باب أشجار الجبال ماينبت منها فى السهل فقد ذكر حوالى خمسين إسما لم يعرف بأكثر من اثنى عشر منها ، ورص الباقى رصا دون أى تعريف ، وكأنه ظن أنها معروفة لجيله ولكل الأجيال من بعده .

وقد يكون هذا الشرح أو التعريف ساذجا كقوله مثلا : الزاء ضرب من الأشربة ..والمغدى ضرب منه ، وقد يفسر اللفظ بمثـــله أو نظيره أو بما هو أغرب منه كقوله مثلا : المسعط هو اللخا ولقد لخيت الرجل ، ولخوته ، وألخيته كل ذلك إذا أسقطته وكثيراً ماكان ينبه على معنى آخر للكلمة ليس من الباب الذى هى فيه كقوله : الجف الكثير من الناس . والجف فى غير هذا شىء ينقر من جـــذوع النخل ، وهو عادة يذكر الكلمة مفردة عن سياقها لكنه أحيانا يذكرها فى جمله كقوله : يقال : دخلنا فى غمار الناس ، وغمار الناس ، وخمار الناس ، وغمرة الناس ، وخمرة الناس أى جماعتهم وكثرتهم » .

ومن الظواهر التى تشيع فى شروحه الالتفات إلى بعض المشتقات مثل الفعل والمصدر وتختلف هذه الظاهرة قلة وكثرة باختلاف الكتب والأبواب

وفى الكتاب كثير من الإشارات الصرفية وقليل من المعلومات النحوية ، ومن الطرف الأول غير ماسبق التفاتة إلى المفرد، والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، وكثير من ألوان الصيغ وأوزان الأفعال .

ومما يجب أن يعلم أنه قد وضع أبوابا أو كتبا خاصة بأمثلة الأسماء والأفعال ، وقد ظهرت فى هذه الشروح والتعريفات التفاتات ذكية إلى اللغات والمعربات وبعض الظواهر اللغوية الأخرى كالتضاد والاشتراك ، والترادف إلى جانب بعض الصور الجمالية والبلاغية وغيرها مما فصلناه فى دراسة أوسع .

وقد كان لتعدد المصادر أثره فى تلك الشروح فتعدد الشرح أو التعريف أحيانا وظهر بعض التكرار ، والاختلافات، غير المحسوسة مع أن أبا عبيد كان يتدخل كثيرا فيما يروى ولم يكن فى الحقيقة غائبا عما يقول .

وإذا كان البغدادى قد ذكر فى خزانته أن علم اللغة من العلوم التى لايستشهد فيها إلا بكلام العرب ، وأن كلام العرب شعر وغيره ، وغير الشعر هو القرآن والحديث وأقوال أصحاب اللغه وأبنائها الذين عرفوا بالفصاحة ، وشهروا بالبيان ، فإن أبا عبيد فى غريبه المصنف وهو من أهم أركان علم اللغه عند العرب ، لم يترك شروحه وألفاظه دون استشهاد بهذا الكلام ، وقد استخدم رحمه الله كل هذه الألوان ، ففى الغريب المصنف حوالى مائتان وألف شاهد من الشعر تتوزع بين الجزء ، والشطرة، والبيت والبيتين أكثرها منسوب إلى قائله وبعضها وهو حوالى ثلاثين وثلاثمائة (٣٣٠ شاهد) غير منسوب .

---

(١) انظر : خزانة الأدب ١ / ٥

وقد أحصيت شعراءه الذين استشهد بهم فوجدتهم حوالى ثلاثة وأربعين ومائة شاعر (١٤٣ شاعر) منهم المشهور حتى ما يحتاج إلى بيانه ، ومنهم الغامض المبهم ولو فى أذهاننا اليوم .

وقد أشار ابن قتيبة إلى مثل هؤلاء قائلا « فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً[١] . . . » .

وقد أحس أبو عبيد أحيانا بما يحيط ببعض شعرائه من غموض ، فكان يحاول التعريف به كقوله عن ابن كاحبة « وهو أحد بنى عدى بن ثعلبة بن يربوع » ومع ذلك فإننا نجده أحيانا ينسب بعض الشواهد للهذلى دون أن يوضح لنا أى هذلى يقصد !

وقد ذكر كثيراً منهم فى كتابه بالأسماء أو بالكنى . ولما كان الشعراء طبقات وللعلماء فى الاستشهاد بهم نظريات مؤسسة على تلك الطبقية فإننا نتساءل — بالطبع — عن طبقات أولئك الذين احتج أو استشهد بهم أبو عبيد ! إننا نرى عنده كثيرا من شعراء الجاهلية مثل : شعراء المعلقات، مثل أوس بن حجر ، وحاتم ، والأسود بن يعفر ، وعدى بن زيد ، وأبو طالب ابن عبد المطلب ، وبشر بن أبى حـــازم ، وســلامة بن جندل ، وساعدة بن جؤية ، ودريد بن الصمة ، وأمية بن أبى الصلت ، ومهلهل بن ربيعة ونهشل بن حرى ، والمثقب العبدى ، والممزق العبدى ، والمتنخل اليشكرى وغـــيرهم .

وفى بعض هؤلاء كلام ، فهذا ابن قتيبة يقول عن عدى « وعلماؤنا

---

(١) الشعر والشعراء ١/٥٩ ط ٢

لا يرون شعره حجة (١) ، ويتردد مثل ذلك عند المرزباني (٢) ، وعند ابن سلام(٣) .

ومن حسن الحظ أننا لا نجد لعدى عند أبي عبيد أكثر من ثلاثة أو أربعة شواهد ، وهو غالبا يرويها عن غيره ، وقد ذكر ابن قتيبه أن في أمية بن أبي الصلت أيضا كلاما ، أما المخضرمون فهم كثيرون عند أبي عبيد ومنهم: حسان بن ثابت ، وأبو ذؤيب الهذلي ، وابن مقبل وسحيم الرياحي ، وأبو العيال الهذلي ، وأبو زبيد الطائي ، وأبو خراش الهذلي ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ، والمخبل السعدي ، ومتمم بن نويرة وغيرهم ، ولا خلاف بين العلماء في الاستشهاد بتلك الطبقة أيضاً .

وقد استشهد أبو عبيد بشعر الإسلاميين من أمثال : الفرزدق وجرير ، وعبد الرحمن بن حسان ، وعمر بن أبي ربيعة ، والكميت ، وعمران ابن حطان ، وقحيف العقيلي ، وابن قيس الرقيات ، ومعاذ الهراء ، وابن ميادة وجميل الراعي ، وأمية بن أبي عائذ الهذلي ، والأرقط ، والحارث بن مصرف ونصيب ، وكثير ، ورؤبة ، والأخطل ، والمرار الفقعسي وابن وهو آخر من يحتج بشعره من الإسلاميين ، وغيرهم .

ولم تكن هذه الطبقة محل إتفاق بين اللغويين في الاستشهاد بأشعارها وقد صرح بعض اللغويين بأن أشعار بعضهم لا تعد حجة على نحو ما يرويه

---

(١) الشعر والشعراء ١/٢٢٥ .

(٢) أنظر : الموشح ١٠٣ .

(٣) أنظر : طبقات فحول الشعراء ١/١٤٠ .

المرزبانى من قول الأصمعى فى الكميت (١) ، وما جاء من كلام أبى عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبى اسحق ، والحسن البصرى ، وعبد الله بن شبرمة من تلحين الفرزدق ، والكميت ، وذى الرمة ، كما يذكر البغدادى(٢) .

وإن كان يرى أن الصحيح هو الاحتجاج بشعر هؤلاء ، كما هو رأى إمام أهل العربية الخليل بن أحمد ، وعلى هذا الرأى كان أبو عبيد كما هو واضح ، ولا نكاد نرى أثرا لشعر المولدين من أمثال بشار بن برد ، وحفص الأموى ، وأبى نواس فى الغريب المصنف ، ولذلك لم يؤخذ عليه ما أخذ على كتاب العين من الاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين .

أما الشواهد غير المنسوبة فإنها تخضع لمثل ما روى عن سيبويه وبعض العلماء من أنهم كانوا لا ينسبون الشواهد إلى قائليها تحرجا من الخطأ ، والظاهر أن أبا عبيد كان على رأى أولئك الذين لا يرون بأسا من الاستشهاد بالأبيات غير المنسوبة وقد أشار إلى هذا الرأى أستاذنا الأكبر الشيخ الخضر حسين فقال : ويحتج بالبيت الذى لا يعرف قائله متى رواه عربى ينطق بالعربية بمقتضى السليقة(٣) . » .

وبذلك يمكن تعليل كثرة الشواهد غير المنسوبة فى الغريب المصنف . فقد أخذها أبو عبيد عن أشهر من عرفوا بالضبط والإتقان أو بالفصاحة والنطق الجيد من الاعراب .

ولكن هل كان أبو عبيد يغير حقا فى ألفاظ شواهده تحرجا وتأثما ؟

---

(١) الموشح ٣٠٢

(٢) خزانة الأدب ٦/١

(٣) القياس فى اللغة ٣٨

لقد ذكر « بروكلمان » أن القاضى عياض قد ذكر هذا فى الشفاء وقال إن أبا عبيد كان ممعنا فى التقوى والورع وكان يحرص على تجنب كل خطيئة حتى كان يمحوا ما يجده من الأسماء فى أبيات الهجاء التى يسوقها شواهد فى مجموعاته اللغوية ويضع بدلا منها كلمات تتناسب مع الأوزان (١) ، وقد شرح الشهاب الخفاجى هذا ومثل لهذا العمل بقول المتنبى :

كأن فعلة لم تمـــلأ مواكبها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب (٢)

ولم يقدم لنا « بروكلمان » ولا « القاضى عياض » ولا شارح شفائه مثالا من شواهد أبى عبيد التى حدث فيها هذا التغيير ولم أعثر حتى الآن على مثل ذلك الشاهد وإن كنت أصدق ما يقال فى هذا السبيل لما أعرفه عن طبيعة أبى عبيد وأخلاقه .

هذا عن الشواهد الشعرية أما الحديث الشريف فإن الاستشهاد به يعد قليلا بالنسبة للشعر إذ لم أحص منه إلا حوالى ثلاثين حديثا .

وقد إستشهد اللغويون الأولون قبل أبى عبيد بالحديث ، مثل الخليل بن أحمد ، والفراء الذى كان إستشهادة بالحديث كما يقول الدكتور الأنصارى « مظهرا قويا من مظاهر النزعة السلفية (٣) » كما استشهدوا به أيضا بعده كما هو واضح عند الأزهرى فى التهذيب .

وقد كان العلماء فى الاستشهاد بالحديث أقوال وآراء أحسن الأستاذ الأكبر الخضر حسين فى عرضها وتلخيصها (٤) وليس هنا محل تفصيل ذلك

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٥ .
(٢) شرح الشفاء م (٤) ص ٤٦٠ .
(٣) الفراء /٨٨ .
(٤) القياس فى اللغة العربية ٣٢ وما بعدها .

إلا أننا نحب أن نذكر أن قلة الاستشهاد بالحديث فى مثل هذا الكتاب الذى يعد صاحبه من رجال الحديث ربما كان راجعا إلى طبيعة المصادر التى روى عنها وما كان من تحرج بعض أصحابها نحو تفسير القرآن أو الحديث وربما كان راجعا إلى طبيعة أبى عبيد وما قام به من تخصيص كتاب للغة الحديث وغريبه .

وكذلك كان موقفه من الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته فلم أعثر فيه إلا على حوالى خمس وثلاثين آية مع ملاحظة تفسير الآية هنا بما يشمل الكلمة فأكثر .

كذلك يستشهد أبو عبيد بالأقوال والأمثال على قلة نسبية أيضا فلم تزد الأقوال التى استشهد بها عن ثلاثين قولا أو ما يقرب منها .

أما الأمثال فلم أعثر إلا على عدد قليل منها ربما لا يتجاوز عدده عدد أصابع اليد الواحدة ، وقد كان ينسب الأقوال إلى أصحابها وربما لا يفعل أحيانا مكتفيا بقوله : ومن العرب ، أو برجل من قريش أو أعرابى أو فلان .

وقد جرت عادة اللغويين على اعتماد ذلك إذا كان الراوى عدلا ثقة من أهل الضبط والإتقان ، ورواة الغريب كلهم من هذا الصنف ، ونجد بين أصحاب الأقوال اسم الحسن رضى الله عنه وهو وإن لم يكن عربيا فقد بلغ من الفصاحة ما يضعه بين صفوف الذين يستشهد بأقوالهم كما فعل الخليل بن أحمد ومثل هذا يقال عن إبراهيم النخعى .

ولا يظن ظان أن كثرة المصادر ، والشواهد ، والرويات وعزو كل قول من ذلك إلى صاحبه ، يخفى شخصية المؤلف ، فإن أبا عبيد يظهر واضحا فى كل كتابه ، فهو إلى جانب قدرته الفريدة على التنسيق والتأليف يعلق ،

ويشرح، ويضيف، ويرجح عند الاختلاف ، ويأتى ذلك وغيره بعد عبارة تأليفية هى قوله : « قال أبو عبيد » وهى عبارة تشكك بعض الباحثين لأنها تخالف ما جرى عليه العرف فى مؤلفات عصرنا من عدم ذكر اسم المؤلف فى ثنايا الكلام ، لكنها تعد سمة من سمات المؤلفات القديمة ويستخدمها المؤلف لذكر أقواله ورواياته .

ولأبى عبيد فى الغريب المصنف من ذلك كثير ، تختلف أغراضه بين ترجيح واستدلال، وجزم بالصواب، وسؤال واستقصاء ، وتنبيه على محفوظ أو على ما يجيز القياس وغير ذلك مما يدل على جوانب الشخصية اللغوية ، والتذوق الفنى لما يقال ويروى من ألفاظ العربية وتراكيبها وتفصيل ذلك يحتاج إلى وقت طويل .

وقد روى الغريب المصنف عن أبى عبيد كثير من العلماء والتلاميذ ، ويذكر لنا ابن خير فى فهرسته (١) طريق روايته لهذا الكتاب ، فيذكر طريقين إلى أبى على البغدادى الذى روى الكتاب من طريقين أيضا حدثنا عنهما فقال أولا إنه قرأ هذا الكتاب على أبى بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى فى أربعه أعوام وأربعة أشهر وسبعة عشر يوما قال « وحدثنى به عن أبيه القاسم بن بشار قال : حدثنى به أبو الحسن على بن عبدالله الطوسى قراءة عليه بسر من رأى قال : حدثنى به أبو عبيد » ثم قال أنه قرأة أيضا على أبى محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه النحوى قال : حدثنى به على بن عبد العزيز عن أبى عبيد رحمه الله ، ومما لا شك فيه أن أشهر من روى هذا الكتاب عن أبى عبيد هم تلاميذه وعلى رأسهم تلميذاه الكبيران : على ابن عبد العزيز ، وعلى بن عبدالله الطوسى ، وقد ترجم لهما كثير من المؤرخين .

---

(١) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٢٧ وما بعدها .

. وقد كان على بن عبد العزيز يتصدى لقراءة كتب أبى عبيد بمكة ويأخذ على ذلك الأجر، كما يذكر صاحب الكفاية(١)، ومن اشتهر برواية كتب أبى عبيد ومنها كتابنا هذا عبد الله بن مخلد(٢)، وعلى بن محمد بن عبد الله المعروف بأبى القاسم بن أبى جعفر الأديب الأصبهانى المتوفى سنة ٤٢٧ وقد سمع هذا الأخير كتب أبى عبيد عن الطبرانى(٣).

وقد كان كثير من العلماء والرواة يحفظ هذا الكتاب على نحو ما روى عن ابن سيده وغيره، وكانوا يعدونه أحد أركان علم اللغة، ويكتبونه.

ومن ثم فقد سلمت لنا بعض نسخ منه، يذكر الندوى فى تذكرته منها:

١ — نسخة فى مكتبة شيخ الإسلام بخط جميل نسخت فى سنة ١١١٤ ه.

٢ — نسخة أخرى فى ميلان بإيطاليا.

٣ — نسخة أخرى فى خزانة أياصوفيا تحت رقم ٤٧٠٦

٤ — نسخة أخرى فى الولايات المتحدة.

٥ — نسخة أخرى فى الخزانة المصرية(٤).

ويذكر «بروكلمان» أن الندوى قد اعتمد فى بعض هذه النسخ على

---

(١) الكفاية فى علم الرواية ص١٥٦

(٢) إنباه الرواة ١٤٩/٢

(٣) إنباه الرواة ٣١٠/٢

(٤) تذكرة النوادر ١٠٧

« كرنكو » ، ويضيف إليها : أنه يوجد مخطوط من الغريب المصنف كتب سنة ٤٨٩ هـ فى مجموعة « لندبرج » .

ومخطوط آخر كتب سنة ٣٨٤هـ فى أميروزياناثان ، كما توجد مخطوطات أخرى فى أسكوريال ثان ١٦٥٠ ، وفى فاتح ٤٠٠٨ ، وأماد زادة ١٧٩٢ — ١٧٦٤[1] .

وفى فهرس المخطوطات المصورة يذكر نسخة فى ثلاثة مجلدات مصورة عن النسخة الخطية المحفوظة بالدار تحت رقم ١٢١ لغة ، ونسخة ثانية مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة جامعة الزيتونة بتونس ، وقد أشار فهرس دار الكتب المصرية إلى تلك النسخة رقم ١٢١ ، وإلى نسخة أخرى مكتوبة بخط محمد أبى النصر بن السيد يوسف هاشم الجعفرى سنة ١٣١٩ هـ ورقمها (٢ش) وفى المجمع اللغوى مصورة عن مكتبة الفاتح بتركيا وهى النسخة التى عثر عليها الدكتور حسين نصار فى وصفه للكتاب[2] .

وقد كان اعتمادى فى دراستى على نسخة دار الكتب ١٢١ لغة ، وهى تقع فى ٥٠٩ صفحة ، وخطها جميل جـــداً ، وإن كانت أخطاؤها كثيرة وتصحيفاتها متعددة ، وليس بهما ما يدل على اسم ناسخها .

وإن كان قد كتب على ظاهرها « وارد المدينة المنورة » ، وصفحاتها من القطع المتوسط وعلى هامشها يكتب ما نسيه الناسخ ، بالخط الجميل نفسه ، وكان قد كتب على ظاهرها « الغريب المصنف » ، لأبى عمرو الشيبانى ، بخط الناسخ نفسه .

ولكن بعضهم أدرك هذا الخطأ وطمس على اسم الشيبانى و كتب النسبة

---

(١) تاريخ الأدب العربى ٢/١٥٧

(٢) المعجم العربى ١/٢٠٧

الصحيحة ، وقدشرفت يدى بنقل هذه النسخة و كتابتها ، والظاهر أنها ترجع فى روايتها إلى أبى الحسن الطوسى ، تلميذ أبى عبيد السابق ذكره لأن اسمه يرد فيها عدة مرات ، من أهمها قوله فى أحد الأبواب « لم أقرأ هذا الباب على أبى عبيد ، ولم أسمع منه ، يعنى باب تمليك الرجل » .

وأبو الحسن هذا هو الذى يقول عنه الزبيدى « وكان من أعلم أصحاب أبى عبيد »(١) .

وقد راجعت أحيانا نسخة جامعة الزيتونة المصورة بدار الكتب ، ولاحظت أن المصورة تنقص بعض الكتب فى آخرها ، وأنها تختلف عن نسختنا فى الترتيب ، وفى ذكر بعض الأبواب وفى استعمال لفظ باب أحياناً مكان لفظ كتاب أو العكس .

وقد كان للغريب المصنف أثره الكبير فى الحياة اللغوية وفى الدراسات التى شهدتها ، فى القديم والحديث .

فقد عده أصحاب المعاجم والمؤلفات اللغوية من أهم مصادرهم ومراجعهم بحيث لا نكاد نجد معجما أو كتاباً لغوياً لم يأخذ من أبى عبيد فى مصنفه أو لم ينقل عنه فى مؤلفه ، ويمكن أن نشير هنا — مع ملاحظة الإيجاز — إلى عدد من أعلام اللغويين الذين أفادوا من الغريب المصنف مثل ابن قتيبة ، وابن السكيت ، والأزهرى وابن سيده ، الذى كان يحفظه عن ظهر قلب ، كما ذكره آنفا ، وأبى الحسن الهنائى ، ومحمود بن عمر السنجرى وغيرهم .

وقد أسس بعض هؤلاء وغيرهم كتبا ومعجمات لغوية على نظام الغريب

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٥٥ وانظر ترجمته ومراجعها فى انباه الرواة ٢/٢٨٥

الغريب المصنف ، تكاملت بها إحدى مدارس المعجمات ، وظهر بها هذا اللون المعجمى المعروف باسم معاجم المعانى والموضوعات ، وكان أبو عبيد رائده ، وليس ابن السكيت كما يذكر أستاذنا الدكتور على عبد الواحد وافى(١) .

وكان من أهم هذه المعاجم وأكثرها أثراً وشهرة :

كتاب الألفاظ لابن السكيت ، والألفاظ الكتابية للهمذانى المتوفى سنة ٣٢٧ ، ومبادىء اللغة للإسكافى سنة ٤٢١ ، وفقه اللغة للثعالبى سنة ٤٣٩ ، ثم المخصص لابن سيده سنة ٤٥٨ .

وقد سار على نظام الغريب المصنف فى كل شىء تقريبا مستخدما كل مادته بحيث يمكن القول بأننا نستطيع استخراج نسخة كاملة من كتاب أبى عبيد من ثنايا المخصص . . .

ومنها كتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابى المتوفى قبل سنة ٦٠٠ هـ .

وهو معروف مطبوع ، ومنها فى عصرنا الحديث كتاب الإفصاح فى فقه اللغة لمؤلفيه الأستاذين عبد الفتاح الصعيدى ، وحسين موسى ، وقد اختصراه من كتاب المخصص لابن سيده وبذلا فيه جهداً استحق ثناء العلامة العقاد .

وقد عنى بعض اللغويين بمادة الغريب المصنف فقام بعضهم باختصاره ومنهم : محمد بن على بن أبى بكر بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمى الذى

---

(١) انظر : فقه اللغة ص ٢٦٣

يقول عنه السيوطى : « كاتب بارع اختصر الغريب المصنف فأتقن فيه وأبدع وسماه : حلية الأديب » . توفى[١] سنة ٦١٦ هـ ، ومحمد بن رضوان ابن أرقم النميرى[٢] .

كما قام بعضهم بتقريبه ، وتهذيبه ، فقد نقل محقق إنباه الرواة عن إشارة التعيين لابن قاضى شهبة فى ترجمة ابن سيده أن له كتابا باسم : تقريب غريب المصنف لأبى عبيد »[٣] .

كما ذكر ابن قاضى شهبة أيضاً أن الخطيب التبريزى قد هذب كتب اللغة كالغريب المصنف ، وإصلاح المنطق[٤] .

وعنى آخرون منهم بشرح أبياته وشواهده ومنهم أبو عبيد البكرى فقد نسب إليه كتاب عنوانه : صلة المفصول فى شرح أبيات الغريب المصنف لأبى عبيد[٥] ، كما شرح هذه الأبيات أيضا ابن السيرافى[٦] ، فى كتابه : شرح أبيات غريب المصنف لأبى عبيد ، وكذلك قام بعض العلماء بجمعه مع غيره على نحو ما نراه فى كتاب لم يعلم مؤلفه جمع كلام أبى عبيد وكلام ابن السكيت ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد ظن العلامة طاهر الجزائرى أن اسمه « الجامع » وكتب ذلك

---

(١) بغية الوعاة جـ ١ ص ١٧٧ ، وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن الكتاب المختصر هنا هو لأبى عمر الشيبانى جـ ٢ ص ١٥٨ فتأمل .

(٢) الصحاح ومدارس المعجمات العربية ص ١٠٢

(٣) إنباه الرواه جـ ٢ حاشية ص ٢٢٦

(٤) إشارة التعيين ص ٥٨

(٥) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٤٣

(٦) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٤٣

بخطه على ظاهر الورقة الأولى من هذه النسخة وهو مقسم إلى خمسة أقسام وهو ناقص من أوله نحو كراسة(١)، وكذلك فى الكتاب المسمى بالجمع بين الصحاح للجوهرى والغريب المصنف لإبراهيم ابن قاسم أبى اسحق البطليوسى النحوى ويعرف بالأعلم المتوفى سنة ٦٤٢ هـ وقيل سنة ٦٤٦ هـ(٢)، وكما اختصر بعضهم الغريب على نحو ماذكرنا سابقا فإن بعضهم قد زاد فيه، وحشى عليه، ومن هؤلاء محمد بن أبى جعفر المنذرى وقد سبقت الإشارة إلى ما نسب إليه من كتاب مازاد فى المصنف وغريب الحديث، وقد أشار الأزهرى فى مقدمته إلى تلك الزيادة فى كتاب «المؤلف»، وكتاب الأمثال، وذكر أنه رواها عنه(٣)، وقد عثرنا فى النسخة التى قرأناها على كثير من الزيادات التى ينبه إليها الناسخ بقوله «حاشية» ثم إذا انتهت قال تحت، وتكثر هذه الحواشى فى أول الكتاب عنها فى الأجزاء الأخيرة منه، وهى تضيف بعض مالم يروه أبو عبيد، أو تبين المختار فى ضبط كلمة منه أو غير ذلك مما يحتاج إليه النص، ويلاحظ وجود بعض رموز فى تلك الحواشى مثل حرف (ص) فى الحاشية الرابعة ص٤ ومثل حرف (ط) فى حاشية ص٧ وربما كانت هذه الرموز تعنى أصحاب تلك الحواشى، وهناك حواشى تذكر فيها بعض أسماء اللغويين، كما أن هناك بعض التعليقات والزيادات المنسوبة بوضوح إلى الطوسى تلميذ الشيخ وراويه، وقد كان للكتاب أيضا شروح من أهمها شرح أحمد بن محمد المرسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ.

هذا وقد نقده ورد عليه كثير من اللغويين من أشهرهم: اسحق

---

(١) انظر فهارس دار الكتب ص٢٨

(٢) بغية الوعاة ٤٢٢/١ وكشف الظنون ٤٠٢/١

(٣) تهذيب اللغة ٢٦/١

الموصلى . فقد ذكروا أن أبا عبيد انصرف يوما من الصلاة فمر بدار اسحق الموصلى ، فقالوا له : يا أبا عبيد : صاحب هذه الدار يقول لك : إن فى كتابك « غريب المصنف » ألف حرف خطأ ، فقال أبو عبيد : كتاب فيه أكثر من مائة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير ، ولعل اسحق عنده رواية وعندنا رواية،فلم يعلم فخطأنا والروايتان صواب ، ولعله أخطأ ق حروف وأخطأنا فى حروف فيبقى الخطأ شىء يسير(١) [كذا] ويالها من روعة الإعجاب تأخذنا أمام هذا الاعتراف العلمى ، والخلق الإسلامى الجميل ، والظاهر أن أبا عبيد نفسه قد حاول تصويب ما أخذ عليه قبل وفاته فقد ذكر بعضهم أن له كتابا باسم استدراك الغلط(٢) ، وقد ذكرت قصة اسحق هذه بأكثر من صورة ورواية ، يختلف بعضها عن بعض وبخاصة فيما يتصل بعدد حروف الغريب المصنف وما عابه منها إسحق .

وقد ذكر الزبيدى(٣) روايتين أحداها تجعل الخطأ فى مائتى حرف من مائة ألف وفيها يقول أبو عبيد « فإن أخطىء فى كل ألف حرفين ما هذا بكثير مما أدرك علينا ولعل صاحبنا هذا لو بدالنا فناظرناه فى هذه المائتين بزعمه لوجدنا لها مخرجا .

أما الروايه الأخرى فإنها تذكر أن أسحق قال « إنك صحفت فى المصنف نيفا وعشرين حرفا فقال : ما هذا بكثير فى الكتاب عشرة آلاف حرف مسموعة ، فخلط فيها بهذا ليسير ، لعلى لو ناظرت عنها لا حتججت فيها » قال أبو بكر محمد : ولما اختلفت هاتان الروايتان فى العدد أمرنى أمير المؤمنين رضى الله عنه بامتحان ذلك فعددت ماتضمن

---

(١) إنباه الرواة ١٩/٣

(٢) تاج العروس ٤٫١

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٢٠ وما بعدها

الكتاب من الألفاظ فألفيت فيه سبعة عشر ألف حرف وتسعمائة وسبعين حرفا(١) » .

والظاهر أن هذا الاختلاف فى العـــدد يرجع إلى اختلاف مفهوم الحرف عند أبى عبيد عن مفهومه عند غيره من أصحاب الروايات ، وكذلك ذكروا أن ممن رد على أبى عبيد ، أبا سعيد أحمد بن خالد الضرير البغدادى ومحمد بن هبيرة الأسدى المعروف بصعوداء ، وقد ذكر السيوطى أنه عمل لابن المعـتز رسالة فيما أنكرته العرب على أبى القاسم بن سلام ووافقته فيه [كذا(٢)] ويلاحظ أنه ذكر أبا القاسم بن سلام وهو يعنى أبا عبيد القاسم فقد جاء فى حاشية محقق إنباه الرواة ٢/٨٥ « قال ياقوت واختص صعودا بعبيد الله بن المعتز وعمل له رسالة فيما أنكرته العرب على أبى عبيد القاسم بن سلام ووافقته فيه ، وإذا صح هذا فإننا نستطيع الزعم بأن « أبا القاسم » الذى يذكره السيوطى كثيراً هو أبو عبيد ، ويترتب عليه ترجيح نسبة كتاب ما فى القرآن من لغات القبائل الذى سبق ذكره إلى أبى عبيد القاسم بن سلام(٣) ، ونعتذر للقارىء عن هـذه الالتفاتة لنذكر أن ممن نقد الغريب المصنف أيضاً على بن حمزة البصرى فى كتابيه الرد على أبى عبيد القاسم بن ســـلام فى المصنف ، والتنبيهات على أغاليط الرواة ، وقـد استغرق نقد الغريب المصنف فى الكـتـاب الأخير حوالى ٨٧ صفحة من المطبوع المحقق ، وقد أشار فى أوله إلى سبب خطأ أبى عبيـــد فقال : ولسنا ننسب إليه رحمه الله كذبا ولـكنا

(١) المرجع السابق ٢٢١

(٢) بغية الوعاء ١/٢٥٦

(٣) انظر حديثنا عن هذا الكتاب فيما سبق وانظر رأى الدكتور حسين نصار فى نسبة هذا الكتاب وفى المقصود بأبى القاسم حـ ١ ص ٧٤ من المعجم العربى .

نقول : لم يضبط ما سمع »(١)، وممن رد على أبي عبيد أيضاً الحسن بن عبد الله أبو على الأصبهانى المعروف بالكذة ويقال لغذة(٢) ، ومنهم أيضاً أبو عمر الزاهد المتوفى سنة ٣٤٥ هـ فقد ذكروا أن من مؤلفاته كتاب ما أنكرته الأعراب على أبي عبيد القاسم بن سلام فيما رواه وصنفه(٣) ، ومنهم أيضاً أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهانى ذكره فى كشف الظنون وذكر أنه رد على الغريب المصنف(٤) .

وهكذا نرى أن الغريب المصنف قد شغل القدماء فعنوا به رواية وحفظاً ، وقراءة ونقداً ، وتهذيباً واختصاراً ، وزيادة وشرحاً ، وتوثيقاً ورداً ، واتباعاً وتقليداً . . هذا ما فعله القدماء فماذا فعل المحدثون لهذا الكتاب الخطير ؟

الحق أن الغريب المصنف لم يحظ إلى اليوم بالدراسة الوافية الخليقة به وكل ما فى الأمر أن بعض الباحثين قد تعرضوا له فى بحوثهم على نحو ما فعل الأستاذ الدكتور حسين نصار فى بحثه عن المعجم العربى : نشأته وتطوره ولم يكن الغريب المصنف عنده سوى مصدر من مصادر المعاجم التى جعلها موضوع درسه ومن ثم تعرض له على وجه السرعة فذكر بعض كتبه وأبوابه ، وعرض لمنهجه فيها ، ومصادره ، وشواهده ، فى إشارات سريعة ، كما كانت له إشارات تتصل بالغريب المصنف فى أحاديثه عن المعاجم الأخرى ، وممن عرض له كذلك الندوى فى نوادر المخطوطات

---

(١) التنبيهات ص ١٩١

(٢) بغية الوعاة ١/٥٠٨

(٣) إنباه الرواه ٣/١٧٧

(٤) كشف الظنون ٢/١٥٨

والطالبي فى دراسته عن المخصص، ومؤرخو الآداب العربية مثل بروكلمان وجرجى زيدان، وأصحاب دائرة المعارف الإسلامية وغيرهم .

وقد كان الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار — حسب علمى — أول من ذكر أبا عبيد من رواد المعاجم أو المعجمات العربية، وجعله صاحب مدرسة من مدارس المعجمات، بفضل كتابه « الغريب المصنف » يقول : ولما ألف أبو عبيد غريبه فتح للناس باباً فى التأليف اللغوى والتأليف المعجمى لم يكن مطروقاً بجملته، واتبع كثير من المؤلفين طريقته، واتفق فى اتباعه القدماء والمحدثون المعاصرون على السواء »(١) .

وقد ذكر عطار أن المستشرق الألمانى « شبتلر Spitaler يقوم فى هذه الأيام بنشر الغريب المصنف وكان ذلك فى سنة ١٩٥٦ م(٢) وقد ذكر الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب منذ وقت طويل نسبياً أن الغريب المصنف بتحقيقه « تحت الطبع »، ولا نعلم حتى الآن متى يتحقق هذا الوعد حتى نرى الغريب المصنف بين أيدى العلماء والباحثين فى عصرنا يطلعون عليه، ويفيدون منه ويعطونه ما يستحق من عناية واهتمام .

وبعد فقد آن للقلم أن ينال ترويحة يسيرة بعد هذا العناء الظاهر مع كتب أبى عبيد ومصادره ومراجعه وبعدها يستأنف السير إن شاء الله ليجلى مابقى من هذه السيرة العلمية العطرة التى لم تنته بقول عبد الله ابن طاهر : علماء الإسلام أربعة : ابن عباس فى زمانه، والشعبى فى زمانه، والقاسم بن معن فى زمانه، والقاسم بن سلام فى زمانه » .

---

(١) مقدمة الصحاح ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٦

ولا بقوله يوم نعى إليه صاحبها :

يا طالب العلم قد مات ابن سلام وكان فارس علم غير محجام
مات الذى كان فيكم ربع أربعة لم يلف مثلهم إستار[1] أحكام
خير البرية عبد الله أولهم وعامر ولنعم الثنى يا عام
هما اللذان أنافا فوق غيرهما والقاسمان ابن معن وابن سلام
فإذا بقدح متين لا كفاء له وخلفاكم صفوفاً فوق أقدام[2]

رحم الله أبا عبيد وجزاه عن الإسلام والعربية كل خير ؟

عبد الله ربيع محمود

(١) إستار كلمة فارسية بمعنى أربعة .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢١٩ وما بعدها .

أهم المصادر والمراجع

١ ـ ابن قتيبة العالم الناقد الأديب .

د . عبد الحميد سند الجندى ، أعلام العرب ، ١٢٢ اكتوبر ١٩٦٣

٢ ـ ابن قتيبة اللغوى : منهجه وأثره فى الدراسات اللغوية .

عبد الجليل مفتاظ عودة التميمى ـ رسالة دكتوراه بكلية اللغة العربية ١٩٨٣ .

٣ ـ أبو على الفارسى : حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره فى القراءات والنحو :

د . عبد الفتاح اسماعيل شلبى ، نهضة مصر ١٣٧٧ هـ

٤ ـ الإتقان فى علوم القرآن :

جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .

٥ ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربى ،

د . محمد زغلول سلام ط ٢ دار المعارف ١٩٦١

٦ ـ الأجناس (كتاب الأجناس)

أبو عبيد القاسم بن سلام . تصحيح إمتياز على عرشى حيدر أباد ـ الهند

٧ ـ أساس البلاغة

جار الله الزمخشرى ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٢

٨ — إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين .

الإمام أبو المحاسن عبد الباقي اليمنى مخطوط بدار الكتب

٩ — ألف باء

البلوى يوسف بن محمد . عالم الكتب بيروت

١٠ — الأمثال فى النثر العربى القديم

د. عبد المجيد عابدين الطبعة الأولى - مكتبة مصر

١١ — الأموال : أبو عبيد القاسم بن سلام تحقيق محمد خليل هراس ط ٢ — ١٩٧٥

١٢ — إنباه الرواه على أنباه النحاة

جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط (١) دار الكتب المصريه

١٣ — بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة

جلال الدين عبد الرحمن السيوطى. الطبعة الأولى و بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى كذلك

١٤ — البلغة فى شذور اللغة

نشرها د. أوغست هفنر والأب لويس شيخو - بيروت سنة ١٩٠٨

١٥ — تاج العروس

السيد محمد مرتضى الزبيدى دار صادر بيروت سنة ١٩٦٦

١٦ — تاريخ الأدب العربى

كارل بروكلمان ترجمة الدكتور محمد عبد الحليم النجار دار المعارف الطبعة الأولى

١٧ — تاريخ آداب اللغة العربية

جورجى زيدان تعليق د. شوقى ضيف — دار الهلال بالقاهرة

١٨ — تاريخ بغداد

الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، الطبعة الأولى — الخانجى وشركاه ١٩٣١

١٩ — تاريخ التراث العربى

فؤاد سزكين ت د. فهمى أبو الفضل الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧١

٢٠ — تذكرة الحفاظ

الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى . الطبعة الثانية حيدر أباد سنة ١٣٣٣هـ .

٢١ — تذكرة النوادر من المخطوطات العربية

السيد هاشم الندوى حيدر أباد سنه ١٣٥٠ هـ

٢٢ — التنبيهات (على أغاليط الرواة)

على بن حمزة تحقيق عبد العزيز الميمنى دار المعارف بمصر

٢٣ — تهذيب الأسماء واللغات

أبو زكريا محيى الدين بن شرف النووى عنى بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٢٤ — تهذيب التهذيب

الحافظ ابن حجر العسقلانى، الطبعة الاولى حيدر أباد سنة ١٣٢٦ هـ .

٢٥ – تهذيب اللغة :

أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى حـ ١ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون – المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤ .

٢٦ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب :

عبد القادر بن عمر البغدادى تحقيق وشرح الأستاذ عبدالسلام هارون، دار الكاتب العربى ١٩٦٧ .

٢٧ – الخيل « كتاب الخيل » :

الأصمعى عبد الملك بن قريب ، نشره « هفز » فى فيينا سنة ١٨٩٥ .

٢٨ – الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث محمد حسين آل ياسين بيروت سنة ١٩٨٠ .

٢٩ – دلالة الألفاظ :

د. إبراهيم أنيس الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ .

٣٠ – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

ابو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى – مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٣١ – شرح الشفاء للقاضى عياض :

شهاب الدين الخفاجى حـ ١ سنة ١٣١٥ هـ .

٣٢ – الشعر والشعراء :

ابن قتيبة تحقيق وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر دار المعارف سنة ١٩٦٦ .

٣٣ – صبح الأعشى :

القلقشندى ط مصوره عن الطبعة الأميرية .

٣٤ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية :

أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الأولى .

٣٥ ـ طبقات ابن قاضى شهبة :

مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٦٨ .

٣٦ ـ طبقات الحنابلة :

القاضى أبو الحسين محمد بن أبى يعلى تصحيح محمد حامد الفقى مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٢ .

٣٧ ـ طبقات الشافعية :

عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية بالقاهرة .

٣٨ ـ طبقات فحول الشعراء :

محمد بن سلام الجمحى ، قرأه وشرحه الأستاذ محمود محمد شاكر طبعة جامعه الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٣٩ ـ طبقات المفسرين :

محمد بن على بن أحمد الداودى المالكى مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٨ تاريخ .

٤٠ ـ طبقات النحويين واللغويين :

أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤ .

٤١ ـ عيون التواريخ :

ابن شاكر مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ .

٤٢ — غاية النهاية فى طبقات القراء :

شمس الدين ابو الخير محمد بن الجزرى، نشره ج . برجستراسر. الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ والثالثة سنة ١٩٨٢ .

٤٣ — غريب الحديث :

أبو عبيد القاسم بن سلام مطبوع بحيدر أباد — الهند سنة ١٩٦٤ .

٤٤ — الغريب المصنف :

أبو عبيد القاسم بن سلام مخطوط تحت رقم ١٢١ لغة بدار الكتب المصرية ومنه نسخة بمكتبتى .

٤٥ — فتح البارى :

الحافظ ابن حجر العسقلانى دار الفكر .

٤٦ — الفراء (أبو زكريا) ومذهبه فى النحو واللغة :

أحمد مكى الأنصارى ط ١ سنة ١٩٦٤ .

٤٧ — فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال :

أبو عبيد البكرى الأونبى تحقيق وتقديم د . عبد المجيد عابدين ود. إحسان عباس الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ .

٤٨ — فقه اللغة :

د. على عبد الواحد وافى الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠ .

٤٩ — فهارس البخارى :

الأستاذ رضوان محمد رضوان مطبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة .

٥٠ — فهارس دار الكتب المصرية .

٥١ — فهرسة ماروه عن شيوخه .

أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلى، وقف على نسخه وطبعه الشيخ فرنسشكه قداره وتلميذه طبعة جديدة عن الأصل المطبوع سنة ١٨٩٣ .

٥٢ — الفهرست :

ابن النديم ، المكتبة التجارية الكبرى .

٥٣ — القياس فى اللغة :

الأستاذ الأكبر الخضر حسين ، المطبعة السلفيه القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

٥٤ — كشاف اصطلاحات الفنون .

التهانوى . بيروت ١٩٦٦

٥٥ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

ملا كاتب جلبى (حاجى خليفة) الطبعة الأولى سنة ١٣١٠ هـ .

٥٦ — الكفاية فى علم الرواية .

حيدر أباد سنة ١٣٥٧ هـ .

٥٧ لحن العامة فى الدراسات اللغوية الحديثة .

د. عبد العزيز مطر ، دار الكاتب العربى القاهرة سنة ١٩٦٧ .

٥٨ — لطائف الإشارات :

شهاب الدين القسطلانى تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان والدكتور عبد الصبور شاهين القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٥٩ — مجلة المجمع العلمى العربى .

السنة الثالثة عشرة .

٦٠ — المخصص .

ابن سيده مطبعة بولاق سنة ١٣٢١ هـ .

٦١ — المخصص لابن سيده : دراسة ودليل :

محمد الطالبى : تونس سنة ١٩٥٦ .

٦٢ — مراتب النحويين :

أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم نهضة مصر القاهرة .

٦٣ — المزهر فى علوم اللغة وأنوعها .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطى تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، مطبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة .

٦٤ — معانى القرآن وإعرابه :

الزجاج شرح وتحقيق د. عبد الجليل شلبى ، القاهرة سنة ١٩٧٤ .

٦٥ — معجم الأدباء :

ياقوت الحموى ط دار المأمون .

٦٦ — المعجم العربى : نشأته وتطوره :

د. حسين نصار الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ والثانية سنة ١٩٦٨ — مطبعة مصر . القاهرة .

٦٧ — مقاييس اللغة :

ابن فارس أبو الحسين احمد تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢ .

٦٨ — المنقوص والممدود

الفراء تحقيق عبد العزيز الميمنى دار المعارف بمصر .

٦٩ — الموشح :

المرزبانى أبو عبدالله محمد بن عمران تحقيق على محمد البجاوى دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥ .

٧٠ — النشر فى القراءات العشر :

أبو الخير محمد بن محمد الدمشقى الشهير بابن الجزرى تصحيح ومراجعة الشيخ على الضباع — دار الكتب العلمية — بيروت .

٧١ — النهاية فى غريب الحديث والأثر :

لأبى السعادات مجد الدين بن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزواوى ومحمود محمد الطناحى — دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه .

٧٢ — وفيات الأعيان :

ابن خلكان تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ .

شبه جزيرة سيناء

دراسة تاريخية حتى نهاية العصر المملوكي

بقلم

دكتور

احمد الحفناوى

أستاذ التاريخ الاسلامى

أرض مباركة ، تلك المنطقة التى اختارها الله عز وجل ، تدور عليها تلك الحوارات الفكرية فى البحث عن ذاته ، ففوقها تحاور الفكر المصرى القديم ، ينظر إلى السماء ويأخذه البحث إلى مخلوقات الله التى تحمل قدراته فيعبدها ، ثم يتردد عندما يرى قصورها ، وفوق الأرض نفسها ، سارت خطوات الأنبياء والرسل ، خطا فوقها إبراهيم الخليل ، أبو الأنبياء هرباً من العراق إلى مصر بحثاً عن أرض صالحة لدعوته ، وفوقها ، مشى يوسف الصديق ، يحمله التجار بعد أن انتشلوه من البئر ، ليبيعوه فى مصر ، وتبعه أبوه يعقوب ، بعد أن أصبح يوسف وزيراً ، ثم كانت خطوات موسى عليه السلام فوق أرض سيناء هرباً من فرعون مرة ، ثم عائداً إليها يحمل دعوته ، بعد أن دار أعظم حوار بين الله الخالق العظيم وبين موسى الإنسان ليتلقى كلمات ربه ، ولتكون رسالته للناس بنزول دين .

هكذا ظلت سيناء مهبطاً للرسالات وطريقاً لخطوات الأنبياء والمرسلين .

* * *

سيناء الأرض والإنسان :

يطلق اسم « سيناء » على رقعة الأرض التى تمتد على شكل مثلث ، ترتكز زواياه الثلاث على رفح وبور سعيد فى الشمال ، ورأس محمد فى الجنوب ، والضلع الشمالى من بور سعيد إلى رفح يمتد على مساحة تزيد قليلا عن ٢٠٠ كيلو متر . أما الضلع الشرقى فيبدأ من رفح ماراً ببئر المغارة وتميلة والقطارة إلى رأس طابا على خليج العقبة ، ثم يسير بمحاذاة الخليج إلى رأس المثلث فى النقطة المسماة « رأس محمد » .

وأما الضلع الثالث من بور سعيد غرباً إلى « رأس محمد » جنوباً ، فإنه يخترق خطا بمحاذاة قناة وخليج السويس .

ومحيط سيناء متكون من ١١٠٠ كيلو مترا : ٢٠٠ على البحر المتوسط ، ٢٦٠ كيلومترا بمحازاة قناة السويس ، ٢٤٠ كيلو مترا بمحازاة خليج السويس ، ١٦٠ كيلومترا بمحازاة خليج العقبة ، ٢٤٠ كيلو مترا فى الخط الفاصل الشرقى ، وتبلغ مساحة شبه الجزيرة فى مجموعها ٤٠٠٠٠ كيلو مترا مربعا .

وقد اختلف المؤرخون حول أصل كلمة : سيناء ، فقال بعضهم : أن معناها « حجر » ، أى بلاد الأحجار ... وقال البعض الآخر : أن الاسم مأخوذ من كلمة « سين » ومعناها بالعبرية « القمر » لأن أهالى تلك المنطقة كانوا يعبدون القمر .

غير أن هذا التفسير غير مقبول ، إذ أن كلمة «سين» لاتعنى فى العبرية « القمر » ، وإذا فرض أن أخذها اليهود من لغة أهل البلاد ، فلا يعقل أن يكونوا قد أعطوا تلك التسمية لجبل الرب .

والتوراة لم تستعمل كلمة سيناء لتعريف المنطقة ، بل أطلقت على شبه الجزيرة اسم « حوريب » أى الخراب ، واكتفت باطلاق هذا الاسم على أحد الجبال .

وأما عند قدماء المصريين ، فلم يكن اسم سيناء معروفا وليس فى استطاعتنا التأكيد بصفة قاطعة من الاسم الذى أطلقوه على تلك المنطقة .

وقد عبر عنها القدماء أحيانا بكلمة « شوشوبت » ، أى أرض العراء وأحيانا أخرى اكتفوا بتسميتها « ساحة الفيروز » أو « بيت سينفرت » .

وقد عرفت أرض الطور منذ القدم باسم « ريثو » ، وأطلق على السكان اسم « شاسو » .

وفى الآثار الأشورية عرفت شبه الجزيرة باسم « مجان » ، وفى

النحوت الهيروغليفية للأسرة الحاديه عشرة ، ورد اسم « طنجهت » لتلك المنطقة ، واستعملت فى نصوص أخرى كلمة « بياونت » .

على أن بعض علماء الآثار حاول تفسير كلمة « سيناء » بأنها مشتقة من « سفدو » ، فالأحرف المنحوته على أحجار سرابت الخادم تشير إلى عبارة « صفدو » وهذه الاله هو أول من يقابله المصرى العائد إلى وادى النيل ، ويفسر ذلك وجوده فى شبه الجزيرة .

فهل « صفدو » أصل كلمة « سيناء » ؟

إنه إذا صح ذلك ، يكون الاله « صفدو » قد أعطى اسمه للمنطقة التى يبدأ منها المصرى رحلته إلى كنوز الفيروز والنحاس .

* * *

ومنذ فجر التاريخ كان العنصر العربى فى تلك المنطقة ، فحمل ذلك تارة إلى تصوير الاله « صفدو » على شكل الاله « هور » — « وفعلا أخذ الاله أحيانا شكل صقر — وتارة على شكل رجل ملتح على رأسه شعر مستعار مربوط برباط من الخلف ويحمل ريشتين وفقا لشكل الصنم الذى كان يعبده رجال الصحراء(١) .

وأطلق الاغريق على المنطقة كلها اسم « أرابيا بيترا » أى بلاد العرب الحجرية ، وظهرت تلك التسمية فى مؤلفات الجغرافى بطليموس ، وأطلقت على كل الأراضى الواقعه جنوب غربى بادية الشام .

ومهما يكن من أصل التسمية ، فالذى يهمنا هو أن تلك المنطقة — سواء كان اسمها « ترشويت » أو « رايتو » أو « سيناء » أو بلاد العرب الحجرية أو « صفدو » — كانت تربطها بوادى النيل روابط قوية تجعل منها جزءاً مكملا لها ، وذلك بالرغم من أن سكانها كانوا يختلفون عن المصريين فى أسلوب المعيشة اختلاف البدو عن أهل الحضر .

وسيناء فى كلتا الجهتين هى الطريق المؤدى إلى الحضارة يطرقه المهاجرون من أهل الصحراء إلى بلاد الرفاهية والثراء ، ويطرقها رجال الوادى إلى حيث يجدون نوعاً آخر من الثراء المدفون فى وسط الصحراء .

فالصحراء الممتدة بجانب مصر الثابتة تؤكد الوجود المصرى بتأثيره الخالد العميق الذى يجلب إليها البدو ، وينظر إليها أولئك الرحل بعين الإعجاب والحسد .

وتعتبر سيناء حصن مصر المنيع وطريق الغزوات سواء منها ما جاءت من آسيا إلى أفريقيا أو التى تحركت من مصر إلى فلسطين وبلاد الشام ، وقد وصفها نعيم شقير : « بأنها قنطرة النيل إلى الأردن والفرات ... »(٢) .

كما أنها أدت دوراً هاماً فى تاريخ مصر منذ مهد التاريخ . . . ولكن بالرغم من تلك الأهمية الحيوية ، يندر من يعرف عنها أكثر من اسمها ! !

فالمتعلمون من العرب اكتفوا بتداول بعض المعلومات الأولية ، مختلطة ببعض الأساطير على مر الأجيال ، كما دونتها الكتب القديمة .

فإذا ماوصل إلى علمهم : أن شبه الجزيرة أرض جرداء بها جبال شامخة تشقها بعض الوديان ، ويقطنها بعض الأعراب الرحل ، قنعوا بذلك ووجدوا فيه الكفاية ! !

وإذا أضافوا إلى تلك المعلومات بعض ماجاء فى الكتب المقدسة ورددوها دون إمعان ، اعتبروا أنفسهم من العارفين بكل الخفايا ! !

* * *

على أن أول محاولة لوضع خريطة لشبه الجزيرة ترجع إلى القرن الثالث ، وهذه الخريطة أصلا كانت خريطة لطرق الإمبراطورية الرومانية والعالم

القديم رسم عليها رسم لروما سيدة العالم ممثلة على شكل شاب جميل يرتدى رداء الإمبراطور ويمسك بيده الكرة الأرضية .

وقد وضح فيها خليجا العقبة والسويس فى موقعهما الصحيح كما ظهر جبل سيناء فى موقعه المعروف الآن ، وفيما عدا ذلك لم تشر الخريطة إلى شىء .

كانت هذه الخريطة مسلكا للعالم بوتنجر وهى بدار الكتب بفينا وطولها ٦ أمتار ، ٨٢ سنتيمتراً ، وعرضها ٣٤ سنتيمتراً ، قسمت إلى ١٢ قطعة هلكت منها القطعة الأولى .

وفى القرن الحادى عشر تقريباً ظهرت خريطة باسم « بياتس » وضح فيها كلمة « سينوس أرابيكوس » ، أى سيناء العربية . ووصف الكتاب العرب موانى البحر الأحمر ، فذكروا موانى كلثوم وآيلة ، وفى سنة ٩٧٧ نقل ابن حوقل ما كتبه من قبل ابن خرداذبه الاشتارى ، وذكر المسعودى أن موسى قاد اليهود فى صحارى التيه ، وكتب لأول مرة اسم « شعيب » ووصفه بأنه عربى وهو كاهن مدين ، وأما ابن إياس فقد أضاف اسم « بركة غرندل » ، وظل الكتاب العرب يتناقلون الأسماء ، وفى سنة ١١٥٣ نقل الإدريسى فى نزهة المشتاق ماسبق أن ذكره المسعودى ، وتبعه ابن جبير فى سنة ١١٨٣ وياقوت الحموى سنة ١٢٢٦ فى كتابه معجم البلدان وشمس الدين الدمشقى مرددين نفس التفاصيل دون إضافة شىء جديد(٣) .

وفى القرن الرابع عشر أعد « مارينو سانودو » عدة خرائط أوضح فيها لأول مرة دير سانت كاترين . . ويعتبر مارينو أول من وضع خطة للاستعمار الأوربى للسيطرة على مصر ، ففى كتاب له أهداه إلى البابا الكاثوليكى فى روما سنة ١٣٢١ ، اقترح على الدول المسيحية احتلال مصر نظراً لموقعها الجغرافى ، ووضع خطة عملية للقضاء على إمبراطورية المماليك »(٤). وكان غرضه الأساسى من الدعوة إلى هذا العمل العدوانى هو

قطع الطريق بين التجار العرب الذين كانوا يوصلون بضائع الهند إلى عدن حيث يدخلون البحر الأحمر إلى خليج السويس أو إلى الطور، ومن هناك تحمل القوافل تلك البضـــائع إلى الاسكندرية حيث يتسلمها التجار الإيطاليون ولاسيما تجار البندقية ، ولايخفى على الباحث الدور الهام الذى كانت تمثله سيناء بالنسبة لتجارة الشرق الأقصى مع أوربا .

فى هذا الوقت ظهر كتاب أبو الفدا فى الجغرافيا ، وبعد قليل تلاه كتاب ابن خلدون(٥) ، وأضيفت فى هذه المؤلفات بعض الملاحظات عن الترعة التى تربط السويس بالنيل ، وعن ميناء آيلة والشواطىء المتاخمة لخليج العقبة .

ويلاحظ فى خريطة « جاستالدى » التى ظهرت فى القرن السادس عشر الميلادى ، أنه قد سجل فيها : جبل سيناء وفيران والطور ، كما وصفها الكتاب العرب ، إلا أنه بالرغم من ذلك كانت الخرائط الأوربية متخبطة فى تحديد الأماكن ففى بعضها ظهرت الطور فى نهاية الخليج الشرقى ، وفى البعض الآخر ظهرت « فيران » مكان « الطور » . ولم تذكر تسمية « رأس محمد » إلا مؤخراً فى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما لم تظهر عيون موسى وغرندل على الخرائط على الضفة الغربية إلا فى هذا القرن .

وظلت الأمور على حالها إلى أن نشرت بعثة بالمر الخريطة المشهورة لسيناء سنة ١٨٦٨ م وكانت تشمل :

١ — خريطة عامة لشبه الجزيرة .

٢ — خريطة جيولوجية .

٣ — خريطة للمنحدر الغربى حتى الجبال المحيطة بدير سانت كاترين .

٤ — مجموعة خرائط منفصله لوادى فيران وجبل السربال .

كل تلك الجهود لم تكن كافية ، فقد ظلت طرق كثيرة فى شبه الجزيرة غير معلومة .

وقد ظلت خريطة سيناء طوال هذه المدة تفتقر إلى الدقة ، لأن خط التجارة البحرية القادم من المحيط الهندى كان يمر من الناحية الغربية ، نظراً لأن المدخل الشرقى كان ضيقاً لايلفت الانتباه ، فكانت تهمله البواخر القادمة من باب المندب إلى السويس .

ومنذ خريطة « بيترى » سنة ١٩٠٥ م توالت خرائط موضوعة على أسس علمية كاشفة جميع النواحى الجيولوجية والطبيعية لشبه الجزيرة تقريباً .

وتنقسم شبه الجزيرة من الوجهة الجيولوجية إلى :

١ — بلاد العريش فى الشمال .

٢ — بلاد التيه فى الوسط .

٣ — بلاد الطور فى الجنوب .

وتختلف طبيعة كل جزء منها اختلافاً كلياً .

فبلاد العريش : عبارة عن سهول شاسعة الرمال فى جزء صالح للزراعه ، وقد أطلق عليها المؤرخون العرب(٦) اسم « الجفار » ، لكثرة الجفار « جمع جفر » ، وهى الآبار الواسعة التى لم تبن بالحجارة ، وأهم فروع وادى العريش هى : وادى أبو متيقنة ، ووادى الرواق ، ووادى البروك ، وقد جاء ذكر وادى العريش فى التوراة تحت اسم « وادى مصر »(٧) .

وبلاد التيه : عبارة عن حائط هائل يكاد يكون مستحيل العبور ومنحدر تدريجياً نحو الشمال ، وتتكون من سهل عظيم جامد التربة ، تتخلله بعض الجبال ، ويفصل بين هذه المنطقة والمنطقة الثالثة سلسلة من الجبال تعرف بجبال التيه .

أما بلاد الطور : فأشهر جبالها : جبل طور سيناء وجبل موسى وجبل المناجاة ، وجبل سرابيت الخادم ، وهذا الجزء من شبه الجزيرة مساحته ١٦ ألف كيلو مترا مربعا ، وهو الأكثر وعورة فى سيناء ، بل فى العالم .

ومناخ شبه الجزيرة جاف تشتد فيه البرودة شتاء والحرارة صيفاً ، وتنبت فية الفواكه والمحاصيل ، حيث توجد المياه بسهولة . وأهم الأشجار فى سيناء « النخيل » حيث يكثر فى العريش وبلاد الطور ، وكذلك يوجد « الدوم » وقد قدر عدد النخيل فى أوائل هذا القرن بحوالى مائة ألف نخلة(٨) .

كذلك توجد الفواكه : كالعنب والرمان والبرتقال واللوز والخوخ والتفاح والمشمش ، وفى حدائق دير سانت كاترين تنمو كل تلك الأصناف. ويزرع عرب سيناء على المطر الشعير والقمح والذرة الرفيعة . كما أن هناك أعشاب برية ترعاها الابل ، وهناك من الحيوانات الأليفة فى شبه الجزيرة: الابل والخيل والحمير والبقر والغنم والكلاب ، وأكثر الحيوانات إنتشاراً هى الغنم من الضأن والماعز . أما الحيوانات البرية فأكثرها انتشاراً : الذئب والضبع والثعلب ، وتوجد بكثرة أنواع من الحمام البرى . وفى العريش « ذبابة الإبل » ، وهى طويلة الأجنحة وسامة إذا ما لمست الجمـــل قتلته أو هزلته ، وقد ظلت شبه الجزيرة أجيالا طويلة مهملة رغم الامكانات الهائلة التى تتمتع بها ، وقد آن الأوان ، لدراسة هذه الامكانات والبدء فى استغلالها على الوجه الأكمل .

* * *

ولا شك فى أن أصل سكان سيناء يرجع إلى العنصر العربى ، فكلمة « عرب » فى اللوحات الأشوريه تعنى شعباً من الرحل يعيش فى الصحراء ، وفى مؤلفات الاغريق جاء ذكر عربى ، كقائد جيش أحد ملوك الفرس ، ويطلق هيرودوتوس ومن بعده الكتاب الاغريق والرومان على كل سكان شبه الجزيرة وعلى سكان صحارى مصر اسم « عرب » : ويبدو أن لفظ « عرب » أطلق على جميع الشعوب الناطقه باللغات السامية فى كل الشرق الأوسط »(٩) ، وتتكلم الكتابات النبطية والآرامية عن امرىء القيس فتصفه

بأنه ملك كل العرب . أما أقدم القبائل الأصلية ، فهى : الحماضة والتبغية والمواطرة ، والحماضة ، يجتمعون فى وادى « فيران » وهم أسياد البلاد الأصليين ولا يزيد عددهم عن بضع عائلات . أما التبغية فتقطن بلاد الطور ، وأما المواطرة فربما كانوا بقية نصارى «فيران» .

وقد دخلت هذه القبائل وغيرها فى حمى العرب الفاتحين وأخذت لغتهم وديانتهم وعاداتهم . ولجأوا إلى المغاور والكهوف فى منازل محكمة البناء من الحجر والطين تعرف عند العرب « بالنواميس » ، ولا يزال بعضها قائما إلى اليوم .

وكانت بعد العصر الفرعونى قد تكونت فى شبه الجزيرة عدة ممالك أشتهرت فى التاريخ — إلا أنها وإن كانت عربية أصلا ، تأثرت بالحضارة الآرامية الإغريقية ، وأول تلك الممالك النبط التى أنشأت دولة تمتد من خليج العقبة إلى البحر الميت شمالا ، ويدخل فى حدودها شمال الحجاز .

وقد اعتنق بدو سيناء الإسلام غير أنهم يؤمنون إيماناً راسخاً بالأولياء ، فكلما مات منهم شيخ اعتبروه رجلا صالحاً وبنوا له ضريحاً محلى بقبة ، ومع ذلك فإنهم يكتفون بذكر اسم الشيخ ، ولا يعرفون شيئاً عن ذكرى سيرة الولى أو أعماله وفضائله .

وكان فى العريش تقليد : يقدم فيه البدو للبحر الذبائح ، ولا شك أن هذا التقليد يرجع إلى عهد الوثنية ، حيث يقيمون احتفالا بعد الربيع سنويا يزورون فيه البحر بخيامهم ومعهم خيلهم وغنمهم ويغسلونها بماء البحر ، ثم يذبحون الذبائح ويرمون رؤس الذبائح وأرجلها وجلودها فى البحر قائلين عند رميها « هــــذا عشاك يا بحر !! » أما باقى اللحم فيطبخونه ويأكلونه ويطعمون منه المــارة .

وعلى نصف ساعة من العريش غابة صغيرة، يزورها البدو للتبرك وهم ينيرونها ويودعون عندها حبالهم وأشياءهم .

وبجانب تلك الأساطير الوثنية التي تأثرت بها البيئة الإسلامية في سيناء، هناك معتقدات امتازت بها كافة المجتمعات البدائية .

وقد حاولت الحكومة في مصر محاربة هذه المعتقدات وتلك الأساطير في بعض مناطق سيناء كمدن : الطور والعريش وغيرها، بإنشاء المدارس والمساجد، ولكن يبدو أن البدو في شبه الجزيرة بوجه عام — في عصر ما بعد التحرير — في حاجة ماسة إلى زيادة الاهتمام بشئونهم والتركيز على قضاياهم .

. . .

بدأت مصر في استغلال معادن سيناء والتوغل في مجاهلها منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وكان السكان الأصليون نفرا من الرحل المتنقلين بين الأودية بحثا عن الرزق يمشون حفاة، ويشدون أوساطهم بالأحزمة، وكانوا يتاجرون مع مصر تجارة بدائية، وكثيرا ما كانت قبائلهم تغير على الأراضي المصرية فينهبون الأطراف الخصبة الملاصقة للصحارى، ثم يفرون بغنائمهم إلى مجاهل الرمال المترامية .

وهناك من النصوص القديمة ما يثبت أن مصر كانت تأويهم إذا ما جاءوا سالمين، ففي لوحة من ملوك الأسرة الأولى نشاهد بعض البدو يلتمسون قبولهم بمصر، وقد أعياهم الجوع فيقرر فرعون ايواءهم، وفيما يلي نص القرار :

أولئك البدو حل محلهم آخرون ضربوا ديارهم وأحرقوها .

يلجأون إلى جلالة العظيم رافع سيفه إلى الإمام .

قائلين : أن بلادهم فى قحط مدقع حتى أنهم يعيشون مشردين كحيوانات الصحراء . ويأمر الملك قائلا : أن عددا من البدو جاءوا إلى بلاد فرعون لأنهم لا يستطيعون العيش وقد أواهم . وفقاً للتقاليد الموروثة من آباء الآباء » (١٠).

وقد أدى هذا إلى تسرب عدد كبير من سكان وادى النيل إلى شبه الجزيرة مما كان له الأثر فى خلق صلات وثيقة بين مصر وسيناء ، ولما عثر الأهالى الأصليون على الفيروز والنحاس والحديد استحضروا كميات منها إلى مصر وباعوها فى مقابل الحصول على المنتجات الزراعية ، فكان هذا أول تبادل تاريخى ، كما كان مصدر إهتمام مصر بسيناء ، ومنذ عهد الأسرة الأولى بدأت الحملات المنظمة إلى شبه الجزيرة ، فما كادت تتوحد مصر شمالا وجنوبا فى ظل حكم ملكى قوى حتى بدأت الحضارة المصرية تتطور وتتجه بسرعة إلى إستغلال موارد سيناء .

ومنذ عهد الأسرة الحادية عشرة تمصرت سيناء تمصيرا تاما ، فعلى صخرة بالمغارة نجد الملك شاخصا أمام إلهى سيناء « توت » و « هاتور » ونقرأ العبارة الآتية :

« فى تلك المغارة وجد الفيروز اللامع » .

وكانت هاتور الالهة الكبرى التى يعبدها الجميع ، ولقبت شبه الجزيرة بلقبها حين تقرر تلقيبها « بسيدة الفيروز » ، فهل كانت هاتور سيدة السكان الأصليين وآلهتهم ؟

وكانت الطرق التى استخدمها المصريون إلى سيناء بحثا عن التعدين وعن الفيروز هى :

١ — الطريق البرى بمحازاة الساحل الشمالى والجنوبى لخليج العقبة .

٢ — الطريق البحرى من خليج السويس .

٣ — عبور الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر ، بالمراكب إلى ساحل سيناء .

على أن أول طريق سلكوه هو الطريق البحرى . . وعلى مر الأيام بدأت طرق جديدة تسلك فى أنحاء سيناء على يد النبط . ومنذ هاجم الهكسوس الأراضى المصرية واحتلوها ، ظهرت إلى النور حقيقة مركز سيناء كخط دفاعى لمصر ، ومنذ ذلك فهم الفراعنة الدرس القاسى ، فكانت استراتيجية ملوكهم تتلخص فى :

« هاجم حتى لا تهاجم . انقل الحرب إلى ما وراء سيناء حتى لا تضطر إلى الحرب فى داخل وادى النيل . . » . بدأت الحملات العظمى التى خلدت ذكرى فراعنة الأسره الثامنة عشر والتاسعة عشرة والعشرين ، وظلت فكره مد النفوذ المصرى — من سيناء — إلى فلسطين وسوريا متسلطة على مصر ، وانتهى بذلك عهد الاكتفاء ببناء الأهرامات والهياكل الضخمة لتقديس الآلهة والتفرغ إلى الفنون والحياه الزراعية الرغدة السعيدة . . ودخلت منذ ذلك التاريخ البعيد ميدان المنازعات الدولية ، واحتلت سيناء — بذلك — مركزا كبيرا فى « الاستراتيجية » المصرية .

سيناء قبل الإسلام

امتزجت العقائد المصرية والسامية فى شبه الجزيرة ، وكان التقليد الدينى فى الطقوس موجوداً قبل سيرة بنى إسرائيل ، فقدس الأقداس يقابله فى معبد « سرابيت الخادم » والكهف والقدس يقابله الهيكل ودار الخيمة يقابلها دار الهيكل ، كذلك كانت الطقوس التى تستعمل فى المعبد المصرى طقوسا سامية يألفها شعب موسى .

والاختلاف الوحيـــد الذى لاحظه الباحثون ، هو أن باب خيمة موسى كان يتجه إلى الشرق لا إلى الغرب ، كما كان الحال بالنسبة لمعبد سرابيت الخادم فالمصرى كان يعبد الآلهة بالطقوس السامية ، ولكنه كان يوجه وجهته نحو بلاده ، أما موسى فكانت وجهته الشرق بحثا عما يسمونه « أرض الميعاد » . . .

وجاء هيكل سليمان ليبنى بعد خمسمائة سنة تقريبا على غرار الخيمة ، ويحملنا هذا على الاعتقاد بأن هيكل سليمان صمم على نموذج معبد سرابيت الخادم » . . .

والواقع أن امتزاج العقائد السامية بالمصرية خلق تراثا مشتركا ، حاول الإسرائيليون طوال تاريخهم التخلص منه بدون فائدة . . وكان وقوفهم ضد العناصر السامية الأخرى التى امتزجت بالحضارة المصرية سببا فى عزلتهم وسط هذه المنطقة التى بثوا فيها الحقد والكراهية .

ومع اضمحلال الحضارة المصرية بدأ الفراغ يخيم على سيناء التى لم يعد يحميها الجيش المصرى من الغزوات ، فظلت حاجزا بين مصر وبين باقى الشرق ، وأثناء هذا الفراغ برزت قصة بنى إسرائيل عائمة بين التاريخ والأساطير .

ولا جدال فى أن خروج سيدنا موسى بقومه العبرانيين هربا من بطش فرعون يعتبر خروجا عظيما فى تاريخ البشرية ، فلقد خرج بدين لكن هذا الخروج لم يكن الخطوات الأولى لنبى ، لقد كانت هناك خطوات أخرى سبقته ، ويرتبط اسم سيناء باسم سيدنا موسى عليه السلام إرتباطا وثيقا ، فلا يذكر اسم سيناء إلا ويتداعى إلى الذاكرة اسم الرسول الكريم ، ولا يذكر اسم سيدنا موسى إلا ويتداعى إلى الذاكرة أيضا اسم سيناء ، فإليها خرج بقومه . وفوق أرضها ناجى الله وتحدث إليه ، وفوق أرضها أيضا خانه قومه وتركوا عبادة الله الواحد وعبدوا العجل ، لذلك تعتبر سيناء واحدة من أهم الأماكن التى شهدت على مدار تاريخها أحداثا دينية هامة ، فقد هاجر إليها سيدنا إبراهيم الخليل بقومه ـ كما سبق أن ذكرنا ـ حوالى عام ١٩٢١ ق . م ، ولذلك هاجر إلى مصر عبرها سيدنا يوسف الصديق واخوته وأبوه سيدنا يعقوب عليه السلام .

ان خروج سيدنا موسى كان — تبعا لما ورد فى التوارة — حوالى سنة ١٤١٩ ق . م ، لأن سيناء شهدت كثيراً من الأحداث الدينية ، فقد ورد اسمها واسم « جبل سيناء » ٤١ مرة فى الكتاب المقدس ، بينما ورد اسم « جبل سيناء » أو « جبل حوريب » ١٨ مرة و « جبل الله » ٦ مرات . . .

كذلك وردت قصة سيدنا موسى ومولده وتعبده ودعوة قومه إلى عبادة الله فى الكتب المقدسة كلها : فى التوراة والانجيل .

ولد سيدنا موسى فى مصر ، وحمل إسما مصريا هو « مو » ومعناها « ما » و « أوسيس » ومعناها انتشل أو التقط من الماء . . ولقد انتشلته ابنة فرعون أو زوجته من النيل عند « المعادى » خلال فترة اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل الذى كان يقتل أطفالهم ويستحى نساءهم . .

ربته ابنة فرعون ، فدرس جميع الفنون المصرية والعلمية والدينية

والفلسفية ، ويقول الكتاب المقدس فى ذلك : فتهذب موسى بكل حكمة المصريين ، وشب وأصبح رجلا ، ثم جاءت حادثة الشجار التى مات فيها رجل بيد موسى ، ففر من مصر إلى أرض « مدين » التى تقع فى الشرق من شبه جزيرة سيناء ، وهناك تزوج من إحدى بناتها ، وأقام حوالى عشر سنوات إلى أن كلفه الله بالنبوة ، لقد حدثت الواقعة التى بدأت منها رحلته إلى الله ، ثم دعوته إلى الدين الجديد ، كان موسى يرعى شياة صهره ، فوصل إلى مشارف جبل سيناء ، وهناك تجلى الله له فقد رأى نارا فقال لقومه ، كما ورد فى الكريم « لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك ، فأخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى » . .

وكما جاء فى التوراة « أنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله اسحق ، وإله يعقوب ، فستر موسى وجهه وخاف أن ينظر إلى الله ، فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون ، وتخرج شعبى من بنى إسرائيل من مصر » .

وقد ذكر الباحثون أن عدد الخارجين من الرجال كان ٦٠٠ ألف عدا الأولاد ، وبدأت رحلتهم من مدينه « رعميس » فى شرق الدلتا عبر سيناء ، حتى وصلوا إلى أرض « كنعان » وهى فلسطين فى أربعين عاما .

كانت نقطة البداية فى رحلة الخروج من شرقى الدلتا هى محافظة الشرقية ، وكانت تعرف وقتها بأرض « جاسان » أو « جوشن » ، وكانت من أخصب أراضى مصر ، وتمتد من أبى زعبل إلى البحر الأحمر ، وهى كثيرة المراعى ، وقد أعطاها سيدنا يوسف عليه السلام — بعد أن أصبح وزيرا لفرعون مصر — لأبيه يعقوب وإخوته فسكنوا فيها هم وذريتهم من بعدهم حوالى ٢١٥ عاما ، وبعد ذلك عبر موسى بقومه العبرانيين البحر الأحمر ، وكان يسمى بحر « سوف » ، وتمثل حادثة شق البحر على يد موسى معجزة الخروج ، يذكر التوراة : « إذ قال الله لموسى إرفع عصاك

ومد يدك على البحر وشقه ، فمد يده على البحر فأجرى الله البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة ، وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ، فعبر الشعب إلى سيناء » . وكانت « مارة » هى أول موقع نزلوا فيه واسمها الآن « بئر المر » وفى هذا الموقع تذمر بنو إسرائيل على سيدنا موسى ، فضرب موسى الأرض بعصاه فانفجر نبع ماء مر المذاق ، فألقى فيه موسى بشجرة أراها له الله ، فصار الماء عذبا ، ورحل العبرانيون بعد عبورهم البحر من الشرقية إلى سيناء إلى مكان يسمى « ايليم » ومعناها « أشجار النخيل » ، وقد وجـــد فيها موسى ١٢ عينا للماء وسبعين شجرة نخيل ، ويرجع المؤرخون أن يـكون مكان « إيليم » هو واحة « وادى غرندل » حيث ينابيع الماء على بعد ٦٣ ميلا إلى الجنوب الشرقى من مدينة السويس ، ويرجحونها أيضا أن تكون هى نفسها « عيون موسى » الحالية ، حيث توجد ١٢ عينا للماء بالفعل حيث يطلق عليها البدو « واحة النخيل » .

استمر العبرانيون فى رحلتهم إلى أن وصلوا إلى جبل سيناء الذى يقع جنوبى شبه الجزيرة ، وقد بلغوا الجبل بعد ثلاثة أشهر من خروجهم من مصر ، ومن « رافيديم » رأى موسى جبل سيناء » و « رافيديم » هى « وادى سدر » الآن ، وفى جبل سيناء أعطى الله لموسى ولبنى اسرائيل الوصايا العشر ، وجميع شرائع الطقوس والعبادات وعاش بنو إسرائيل عاما تحت سفح الجبل ، حيث مارسوا حياتهم وفى نفس المكان صنعوا عجلا من الذهب وعبدوه ، فغضب الله عليهم .

غير أن شكوكا كثيرة لا تزال تحيط بخطوات سيدنا موسى فوق أرض سيناء ، وقد غـــرق كثير من الباحثين فى شتى الاحتمالات والاستنتاجات لتحديد الطريق الحقيقى الذى سار فيه اليهود خلف موسى خارجين من مصر ، ومعظم الدراسات التى أجريت إما أنها كانت متحيزة

تماما أو يصعب إثبات صحتها، لكن أحداً لا يختلف على بداية الرحلة إلى نهايتها ، حيث توفى سيدنا موسى على المشارف الشمالية للبحر الميت فى الأردن ، أما تفاصيل الرحلة ونقط التوقف كما ذكرتها التوراة ، فيصعب تمييزها بدقة على الخرائط الحالية وإن كان هناك طريقان يرجحهما المؤرخون :

* الطريق الجنوبى الذى يجتاز خليج السويس جنوبا إلى قلب سيناء . . .

* الطريق الشمالى ، ويمكن أن يكون العبرانيون قد عبروا فيه منطقة البردويل ، ومضوا نحو الشرق ، ثم جنوبا إلى جبل « الحلال » الذى يرى البعض أنه « جبل موسى » ويلتقى الطريقان — الشمالى والجنوبى — معا فى منطقة « عين القديرات » ، ولكن أين على وجه التحديد عبر العبرانيون البحر ؟ ! ! وأين كانت واقعة شق البحر .

أول المواقع التى ترجحها كتب الخروج يقع قرب السويس أمام عيون موسى ، ويرجح أن يكون موقع شق البحر مسطحا مائياً صغيراً فى نقطة عند المضيق الذى يفصل البحرين المتوسط والأحمر .

وقيل : إنه ربما كان « البحيرات المرة » أو بحيرة المنزلة ، أو ربما بحيرة البردويل فى الشمال ، وهذا الافتراض الأخير امتداد لنظرية الطريق الشمالى لخروج اليهود الذى يسير بمحاذاة ساحل البحر المتوسط شمالى سيناء ، ويرجح البعض أن سيدنا موسى لجأ إلى الطريق الشمالى تفاديا لنقط المراقبة المصرية لفرعون فى سيناء على الطريق التقليدى فى الجنوب . .

وكما اختلف المؤرخون فى طريق موسى اختلفوا أيضا فى عدد العبرانيين الذين خرجوا معه ، فقد جاء فى التوراة أنهم ٦٠٠ ألف رجل

وعائلاتهم بجانب قبيلة «ليفى» وعدد كبير من الأتباع، وهو ما يرتفع بالرقم الى ٢ر٥ مليون، الا أن معظم المؤرخين يرون أن هذا الرقم مبالغ فيه، ويعتقدون أن كلمة «اليف» — بعد الرقم ٦٠٠ — التى تترجم الى ألف، ربما كانت تعنى أسرة، وهذا يعنى أن الخروج كان يضم ٦٠٠ أسرة وأتباعهم وهذا يحدد رقم الخروج بأقل من ١٥ ألف شخص، وهو رقم يمكن قبوله ...

وهناك نقطة لا تزال تشغل بال المؤرخين .. من فرعون موسى؟

وطبقا لرواية التوراة، فقد وقع عذاب بنى اسرائيل فى عهد فرعون ووقع خروجهم فى عهد فرعون آخر، ودلت القرائن على أن رمسيس الثانى هو فرعون الاضطهاد والعذاب، وشاع بين المؤرخين والباحثين أن «مرنبتاح» ابن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج، لأنه تولى العرش بعد أبيه احمس ومن اللافت للنظر أن اليهود حاولوا صبغ أساطيرهم بصبغة الحقيقة، وأضافوا إلى نصوص الخروج بعض التفاصيل فى محاولة لاقناع القارىء بصحة مزاعمهم ومنذ قيام المسيحية تتراكم الكتب والبحوث العلمية عما سمى برحلة بنى اسرائيل وتغربهم بها مدة أربعين سنة.

وقد أثر هذا الحدث على تاريخ الانسانية أثرا عميقا، والحق أننا لا نملك — بجانب ما جاء فى الكتب المقدسة — أى دليل قاطع يؤيد لنا وقوع كل الأحداث التى جاء ذكرها فى التوراة، ولإلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع لا بد من العودة الى تاريخ تحرير التوراة وتطور تحرير النصوص الواردة بها، ومن الواضح أن هناك عهودا ثلاثة تعرض لها الكتاب المقدس، ولعبت فيه الأساطير اليهودية دورا هاما:

* عصر إبراهيم ..

* عصر موسى ..

• عصر السبى الى بابل . .

فاذا علمنا أن التوراة كتبت أثناء السبى الى بابل وجدنا أنه قد مر بين وقت تحرير الكتاب المقدس وعصر ابراهيم ما يزيد على ١٣٠٠ سنة ! !

وإذا علمنا أيضا أن العصر الأول مشترك مع كل العناصر السامية .. لأنه مستقل بذاته ، وليس له أية صلة بموسى أو باليهود أو التوراة ، فرض علينا البحث فرضا أن هذا الجزء من التوراة مصدره محرف ..

وهذا يفسر ما جاء فى القرآن من القول بأن ابراهيم لم يكن يهوديا ، بل كان آراميا ونادى بالوحدانية فى الوقت الذى لم يكن هنا لك أثر لليهود .

وفى العصر الثانى جاء موسى وهو لا صلة له اطلاقا بعصر ابراهيم والذى يقرأ العهد القديم يرى أن هناك فجوة بين العهدين .. برغم محاولة الكاتب سداد هذه الفجوة .. والدور الموسوى مطبوع بطابع مصرى مما حمل كثيرا من المفكرين أن يستنتجوا من النصوص أن موسى كان مصريا ..

وأن الوصايا جاءت مكتوبة باللغة المصرية ، ومما يؤيد هذا الرأى تشابه « اعتراف الميت أمام الاله أوزيريس والوصايا العشر .. » .

وأقرب الى التصور أن هجرة موسى هى هجرة جماعة من الموحدين وجدت نفسها معرضة للاضطهاد بعد وفاة اخناتون ففضلت الهروب من البلاد والاتجاه نحو الشرق ... وهؤلاء هم قوم موسى »(١١)، أولئك القوم كانوا يتكلمون المصرية . .

وفى العصر الثالث ، بدأ فلول اليهود فى منفاهم ببابل يحررون « التوراة » ويبدو واضحا جليا لقارىء التوراة أن الهدف الأول الذى رمى إليه المحررون هو تمجيد الزمرة اليهودية التى اصطفاها « الرب » فجعلها شعب الله المختار دون بقية الشعوب المجاورة !!

ولنجاح المخطط كان لابد من ارجاع أصل اليهود الى التاريخ القديم للمنطقة وزاد اليهود فى التحريف ، فوضعوا على لسان إبراهيم ويعقوب ما يثبت فى نظرهم أحقيتهم فى الاستيلاء على أرض الميعاد ..

فى عهد البطالسة أراد اليهود التقرب الى الحكام بصبغ شريعتهم بألوان من الحضارة وكان الغرض الأساسى هو التوفيق بين الثقافة الاغريقية والتعاليم العبرية التى كانت الى ذلك الحين منبوذة لاحتقار شأن شعبها ، فنشر اليهود دعايتهم فى العالم الاغريقى : بأن كل ما أنتجته اليونان ما هو الا تحريف للثقافة اليهودية القديمة !!

حتى أن فلاسفة اليونان المشهورين ما هم الا تلاميذ العقائد العبرية .!! وكل ما هو حكيم فى مؤلفات الاغريق مصدره التوراة ..

وادعى اجتهاد المؤرخين ان وجدت فى مصر نسخه من التوراة سابقة بكثير للنسخة التى نشرها السبعون حكيما من اليهود فى عهد البطالسة .. فاقتبس الاغريق من هذا الكتاب كل ذى قيمة فكرية وأضافوه إلى مؤلفاتهم .. » (١٢) !! .

وبنفس هذا الأسلوب كان تحرير الكتاب اليهود للعهد القديم ، فقد تعمدوا ابعاد الكنعانيين — وهم سكان فلسطين الأصليين — من الكتلة السامية ..

ويلاحظ حتى يومنا هذا : أن اليهود يحاولون الانفراد بالانتساب للساميه ، فأشاعوا فى العالم — وهم لا تنقصهم وسائل الاعلام ومراكز التأثير — كلمة « اللاسامية » للتعبير عن الاضطهاد الذى تعرضوا له ، وكان الأقرب الى الحقيقة استعمال لفظ « اللايهودية » !! .

لقد لجأ اليهود منذ السبى البابلى الى تقديم كافة التسهيلات والمساعدات

الى كل القوى التى توارثت السيطرة على هذه المنطقة من الفرس الى الاغريق الى الرومان الى الفرس ثانية ، ثم الى الأتراك فالانجليز وأخيرا وفى هذه المرحلة الى كل من : « الامبريالية » الغربية والماركسية الدولية !!

ولقد أشركوا الههم فى هذا الحقد وكأنه ربهم لا رب غيرهم ، فوضعوا على لسان موسى غداة الخروج من طلبه من اليهود افتراض ملابس المصريات وحليهن والهرب بها !!.

والعجيب كل العجب أن تلك الخرافات قد غرست جذورها وانتقلت الى المسيحية (١٣) ، وأعادت المسيحية الى الحياة ذكرى موسى ، من جديد برزت شبه الجزيرة فى التاريخ بضوء من النور والتقديس ، وهنا يأتى سؤال: لماذا أدمجت المسيحية تلك العقائد فى تراثها الدينى ؟

لقد كان هناك تيار قوى فى القرون الأولى من المسيحية يطالب بقطع العلاقة بين « العهد القديم » و « العهد الجديد » ، الا أن هذا التيار لم ينتصر بسبب بعض النصوص التى وردت فى الانجيل ..

وازاء هذا الوضع بدأ الاجتهاد يلعب دورا كبيرا فى تفسير بعض النصوص التى وردت فى التورة تفسيرا يرمى الى اظهارها كرموز منبئة بظهور المسيحية ، ولعبت المسيحية نفسها « باسرائيل الجديدة » ، وجعلت من المسيحيين شعب الله المختار الجديد ، وأدمجت المسيحية فى عقائدها الرسالة الموسوية ، وبدأت تعيد الى الذكرى النبى الذى قاد شعب اسرائيل الى أرض الميعاد ..

ومن هنا تحولت سيناء — بعد انتصار المسيحية — الى مكان مقدس يحج اليه المؤمنون ، وكانت أول حركة أثبتت أهميتها : هى حركة الرهبنة فى الصحراء .

وقد ساعد على هذه الحركة الاضطهاد الذى لقيه المسيحيون فى البداية على أيدى الاستعمار الرومانى . . وكانت أهم الأماكن التى نزل بها النساك هى : جبال موسى ووادى فيران ووادى الحمام شمال مدينة الطور ، ومالبثت شبه الجزيرة أن امتلأت بالرهبان والنساك . وبنت القديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين (٣٢٣) للرهبان برجين فى نفس المكان المقام عليه اليوم : دير سانت كاترين . . .

وكان منطقيا أن يسلك هؤلاء الزهاد الطريق الذى جاء فى التوراة لمسيرة شعب بنى إسرائيل .

وتجمع كثير من المسيحيين فى منطقة الطور منذ القرن الثالث م ، ونجحت سيناء كموقع لحج المسيحيين بعد أن شجعت ذلك القديسة « هيلانة »

يقول المؤرخ البيزنطى بروكوب : « فى المنطقة التى كانت تسمى بلاد العرب وتسمى الآن فلسطين الثالثة صحراء واسعة بلاماء ولانبات ولا أشجار ويوجد جبل ناء لايمكن تسلقه إلا بشق الأنفس ، وهو يقرب البحر الأحمر ويسمى « جبل سيناء » ، ويسكن هذا الجبل رهبان ونساك حياتهم كلها مخصصة للعمل والصوم والتفكير فى الآخرة ، وهم يعيشون فى عزلة تامة .

ولما رأى الامبراطور جستنيان أنه ليس باستطاعته أن يمدهم بأية مساعدة — إذ أنهم يزهدون المال وخيرات الدنيا — قرر أن يبنى لهم معبدا باسم السيدة العذراء ، وعلى سفح جبل بنى لهم حصنا وخصص قوة من الجنود لحماية الحصن ، ومنع العرب من تدبير الغزوات وتأمين الطريق إلى فلسطين ، وفى عام ٥٤٥ م ، تم بناء الحصن والمعبد والدير وتغير اسمه سنة ٦٠٠ م إلى دير سانت كاترين . .

سيناء فى ظل الإسلام :

دخل العرب مصر عن طريق الفرما ، وهو الطريق التاريخى ، إذ هو أقدم الطرق بين مصر وسوريا ، فلما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م ، كان الخليفة عمر بن الخطاب قد ألحقه بكتاب وهو فى الطريق ، يقول فيه :

« أن أدركك كتابى هـذا وأنت لم تدخل مصر ، فأرجع عنها ، أما أن كنت دخلتها أو شيئا من أرضها فأمض وأعلم أنى ممدك » .

فلما قرأ عمرو الكتاب ، سأل من حوله : هل نحن فى أرض مصر أو الشام — وكانوا وقتها فى العريش — فأجابوه : أننا فى أرض مصر ، فقال : « هلموا بنا إذا قياما بأمر الله وأمير المؤمنين » (١٤) .

وجاء فى تقويم البلدان : « حد ديار مصر الشمالى بحر الروم من رفح إلى العريش ممتدا على الجفار إلى الفرما إلى الطنية إلى دمياط إلى ساحل رشيد إلى الاسكندرية إلى ما بين الاسكندرين وبرقة »(١٥) .

لقد دفع الفتح الإسلامى بالعرب المسلمين إلى مصر من العريش ، ثم الفرما ثم بلبيس ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت سيناء كلها محاطه بجيوش المسلمين من كل الجهات ، فهاجر كثير من المسلمين إلى مصر — كما هاجروا إلى العراق والشام وبلاد فارس — وتخلف البعض فى سيناء ، واندمج سكان سيناء مع العرب القادمين فى نظامهم الجديد عن رضا واختيار واقتناع ، بدليل أنه لاتوجد فى سيناء أية حصون أو مواقع دفاعية ثبت أن أقامها العرب فى شبه الجزيرة . .

بل ويميل المؤرخون إلى أنه قد وقع امتزاج بين القبائل العربية القادمة وسكان سيناء على اعتبار أنهم من جنس واحد ، ولم تكن هناك أدنى مقاومة

الجيوش المسلمين الظافرة حتى ولا من الهيئة الوحيدة المنظمة — فى ذلك الوقت فى سيناء — وهى دير سانت كاترين ، حيث لا يوجد فى شبه الجزيرة من المسيحيين سوى رجال الدير والنساك ، أما اليهودية فلم يعتنقها أى بدوى سواء قبل الإسلام أو بعده .

وظلت سيناء بعد الفتح الإسلامى الطريق الأساسى الموصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . . وقلت قيمتها « الاستراتيجية » لأنها كانت محاطة من كل النواحى بدول اسلامية . كما ظلت الطريق التجارى الأساسى فضلا عن طريق الحج إلى مكة المكرمة .

* * *

ومنذ فجر التاريخ الإسلامى والعلاقات بين الحكام المسلمين وبين دير سانت كاترين تحكمها تلك الآية القرآنية الكريمة : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون »(١٦)

ولذا نجد أن العرب المسلمين لم يدخلوا أى تغيير فى إدارة الدير ، لكنهم أبقوا عليها ونشروا حمايتهم حول الدير من أعمال السطو التى كان يتعرض لها من قبل البدو أحيانا ، ولم يكن هذا التقليد دينيا فقط . بل كان سياسيا أيضا ، فالدير فى الطريق بين بلاد الشام ومصر وتأمينه كان من مصلحة العرب . . .

وقد سبق للرسول الكريم أن أرسل عددا من الكتب إلى حكام مصر وبيزنطة وبلاد فارس ، ومن الأرجح أن يكون الوفد الذى ذهب برسالة النبى محمد عليه السلام إلى المقوقس فى مصر قد مر بالدير ، كما أنه من المحتمل أن يكون الرهبان قد أرسلوا وفدا للنبى عليه السلام يطلب منه العهد تأمينا للطريق وصيانة للدير ، كذلك من المحتمل أيضا أن يكون النبى ﷺ قد أعطى هذا العهد وأوصى بالرهبان خيرا . .

وفى الدير وثيقة مودعة به قيل أن عليا بن أبى طالب كتبها باسم النبى عليه السلام فى ٣ من المحرم سنة ٢ هـ .

إلا أن هذه الوثيقة ليست الأصل ، ولكن قيل أيضا أن الأصل استولى عليه السلطان سليم أو السلطان سليمان القانونى على حد قول البعض الآخر وأرسلها إلى استانبول ويلاحظ أن تلك النسخة لا تخلو من أخطاء وعبارات ركيكة مما يصعب تصديق صحتها .

والذى يهمنا فى هذا الصدد ليس مدى صحة عباراتها ، بل اعتبار مضمونها تقليدا مقدسا فى الإسلام لحكم العلاقات بين الدير وبين السلطة الحاكمة ، فالوثيقة ناطقة برغبة العرب فى استمرار الدير قائما بوظيفته الأساسية التى حكمت علاقاته مع السلطة المسيحية منذ عهد جستنيان ..

وقد رأينا أن نثبت نص هذه الوثيقة فى نهاية البحث ، وبالرغم من أننا نتحفظ بالنسبة إلى صحتها من الناحية التاريخية ، لأنها ذات أثر عميق ، فقد احترمت على مر الأجيال وكأنها صحيحة ! ! لقد أنكر بعض الباحثين هذه الوثيقة وأنكر صدورها عن النبى عليه السلام ولهم فى ذلك مبرراتهم المقبولة :

فأسلوبها يختلف عن الأسلوب الذى كان سائدا فى عصر النبوة ، كما أن صياغة تراكيبها وألفاظها لم تكن مألوفة حينئذ . . . يضاف إلى ذلك أن الوثيقة ذكر أنها مؤرخة فى السنة الثانية للهجرة مع أن الهجرة لم يؤرخ لها إلا بعد وفاة النبى بسبع سنين .

كذلك هناك من الشهود الذين وقعوا على الوثيقة يصعب علينا تصديق توقيعهم عليها . .

فأبو هريرة وأبو الدرداء مثلا لم يكونا قد اعتنقا الإسلام بعد فى السنة الثانية للجرهة .

إلا أنه بالرغم من قوة تلك الحجج فقد نفذت نصوصها كأنها صحيحة ، على أنه يمكن أن يقال : أنه ليس من المستحيل أن تكون تلك الوثيقة مشمولة فى العهد الذى أعطاه النبى أهل آيلة .

ذكر ابن إسحاق: « فلما انتهى رسول الله (ﷺ) إلى تبوك أتاه تحية ابن رؤية صاحب آيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأدرح فأعطوه الجزية وكتب لهم كتاباً فهو عندهم : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا آمنه (لعلها أمان) من الله ومحمد النبى ورسوله لتحية بن رؤية (ولعل الاسم تحريف ليوحنا بن رؤية) وأهل آيلة وأساقفتهم وسائرهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لايحول ماله دون نفسه وأنه طيب لم أخذه من الناس ، وأنه لايحل أن يمنعوا مايريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر ... » .

ومن الملاحظ أن هناك أوامر من العهد الفاطمى تؤكد على حكام العقبة ضرورة ماجاء بالوثيقة بكل أمانة ، ومن بينها الأمر الصادر من الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٤٤ — ٥٢٦) بضرورة تنفيذ العهود القديمة الخاصة برهبان دير طور سيناء .

ولم يظهر حتى الآن أنه عثر على أى شىء يدل على صحة الوثيقة، ولكن ذلك لا يمنع الترجيح بأن مثل هذا العهد قد يكون له أصل تاريخى لتمشيه من كل الجوانب مع التقليد الإسلامى منذ أقدم العصور ، فضلا عن تمشيه مع النصوص الواردة فى القرآن ومع تطبيقه واحترامه من جانب الحكام المسلمين..... إن بقاء الدير طوال العصور بالرغم من الغزوات والانقلابات التى مزقت الإسلام لهو مثال أظنه فريداً فى نوعه لروح التسامح التى سادت وحكمت العلاقات الإنسانية فى هذا الطريق الذى يربط القارات ببعضها

ببعض ، كما بربط الأديان فى تضامن يرجع بلا شك إلى وحدة التراث العقائدى » . (١٧)

* * *

وقع الغزو الصليبى للمنطقة وأنشئت بعض الإمارات الصليبية فى الشام وفلسطين ، وهنا برزت أهمية سيناء « الإستراتيجية » كحصن ضد الغزاة ، وتوطدت العلاقات بين حكام مصر وبين رجال الدير ، وفى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى أنشىء بداخل الدير جامع ، وتم بناؤه فعلا ، ويقال أن هذا الجامع بناه الفاطميون بدلا عن الجامع الذى كان قد بنى بأمر عمرو بن العاص . . وبوجه عام لعبت سيناء دوراً حيوياً فى الدفاع عن مصر أثناء الهجمات الصليبية . . . واستمر ولاء رجال الدير للحكام المسلمين بالرغم من الشكل الدينى الذى اتخذته الحروب الصليبية . . . ، ولم يشجع الرهبان أى حج من جانب الصليبيين إلى الدير ، ففى عام ١١١٦ م طلب « بودوان » الأول بعد إخضاعه للقدس من رهبان الدير السماح له بزيارته والتبرك به ، ولكن رئيس الدير رفض راجياً «بودوان» ألا يعبر الصور حتى لا يثير على الدير نقمة حكام مصر . . . وتتحدث الروايات التاريخية عن اعتماد الفاطميين اعتماداً كلياً على ولاء رهبان الدير .. وهكذا كان هذا الحصن المسيحى يدافع عن مصر الإسلامية ضد غزو اتخذ من المسيحية شكلا دينياً ! !

وثبت للصليبيين صعوبة دخول مصر عن طريق سيناء ، مما حملهم على الإلتجاء إلى الغزو عن طريق البحر ، وكانت خطة الصليبيين من وراء تلك الحملات واضحة وهى أنه لا يمكن أن يستتب لهم الأمر فى فلسطين دون إرضاخ مصر ، وقد عبر أحد قادتهم عن هذه السياسة قائلا : « إن مفتاح القدس هو فى مصر أى أن هزيمة مصر وحدها هى الوسيلة التى تؤمن لهم استمرار سيطرتهم على الشام وفلسطين ... » ، ولا شك أن هذه

السياسة هى التى يطبقها اليهود فى هذه المرحلة الخطيرة التى تمر بها المنطقة العربية .

وفى عام ١١١٦ م عبر « بودوان » سيناء واستولى على مدينة آيلة وشيد بهاقلعة ، إلاأن عبد الله الجعفرى ومعه جماعة من بنى الجراح استولى عليها وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار ثم حرقها (أى القلعة) .

وجاء صلاح الدين سنة ١١٧٠ م فاستولى على آيلة وعلى ماتبقى من القلعة وفى هذا الصدد ذكر القاضى الفاضل : « أن الملك الناصر صلاح الدين أنشأ المراكب وحملها على الجمال وسار بها من القاهرة لمحاربة قلعة آيلة ، فنزلها فى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، وأصلح المراكب فى البحر وشحنها بالأسلحة والرجال واستطاع أن يفتح القلعة فى ٢٠ من ربيع الآخر ... بعد أن قتل فيها من الفرنج وأسر ... وأسكن بها جماعة من ثقاته ومنحهم مايحتاجونه من سلاح ومال .. » .

استمر صلاح الدين — بعد أن حقق هذا النصر — فى استرداد سائر المواقع المهددة فى سيناء وحصنها ، وأعاد آيلة مركزاً لاستقبال الحجيج الذاهبين إلى مكة المكرمة ، كما أعاد ترميم طريق العريش بعد تخريبه سنة ١١٦٥ م ، وأقام عدداً من القلاع فى : عين سدر ووادى الراحة والعقبة ، ومازال جزء من قلعة « الجندى » التى أقامها بالقرب من عين سدر فى حالة جيدة حتى هذه الأيام وعلى مدخل القلعة كتبت هذه العبارات : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين الملك يوسف ... العادل الناصرى — فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ أغسطس سنة ١١٨٧م ، وفى الجهة الجنوبية من القلعة أقام صلاح الدين الأيوبى جامعين وصهريجاً للمياه . . وقد أثارت تلك القلعة إعجاب كل من مر بجانبها أو زارها نظراً لتوازن أحجامها وجمال هندستها وهى تعتبر صورة معبرة عن الفن العربى الذى انتشر فى القرون الوسطى .

ولما قامت دولة المماليك فى مصر استطاعت القضاء نهائياً على الوجود الصليبى فى المنطقة وأمتد نفوذها إلى الشام وفلسطين ، وعادت سيناء محاطة من كل جانب بممتلكات إسلامية ...

وعادت أهميتها كطريق للحج والتجارة، وقد ساعد على انتشار الأعمال التجارية الروح السائدة بعد نهاية عهد العقلية الصليبية ، إذ رئى الإستغناء عن الحرب ، وبدأت العلاقات تتوطد بين مصر والبندقية واستمر التعاون قائماً طوال العصر المملوكى ، فأصبحت الإسكندرية ودمياط وبيروت والقاهرة ودمشق وحلب تستورد من أوربا الأخشاب والمعادن والزيوت والجلود والأصواف والمنسوجات وغيرها، كما كانت تصدر الشبة من حلب والعنبر من المحيط الهندى ولبان جاوى والنشادر من صوماطرة والقرفة والقطن من الهند والتسليم من مصر . ..

وكانت البندقية تتبادل مع مصر السفارات كما كان فى الإسكندرية ودمياط ورشيد مقراً ثابتاً لممثلى (قناصل) البندقية فى تلك المدن . ونظراً لأن أوربا كانت تغطى فرق وارداتها وصادراتها نقداً بالذهب ، فقد تدفقت على مصر والشام الخيرات الكثيرة .

كان تجار الهند لا يتعدون (عدن) حيث يبيعون منتجاتهم إلى تجار من العرب المصريين ، ومن عدن كانت تنقل البضائع على سفن مصرية عبر البحر الأحمر حتى تصل إلى القصير أو عيذاب ، ومن هناك إلى قوص ، ثم ترسل عبر النيل إلى موانى الإسكندرية أو دمياط أو رشيد .

على أن هذا الطريق لم يدم طويلا، إذ لم يلبث أن أهمل وحلت (الطور) محل القصير ، كما حلت جـدة محل عدن ... وكانت الحجاز وقتها داخلة فى النفوذ المملوكى .

كانت قوافل السفن تصل إلى الطور مرتين فى السنة : فى سبتمبر

وفى مارس، مما أدى بسفن أوربا أن ترتب سفر قوافلها البحرية إلى الموانى المصرية وفقاً لبرنامج دخول القوافل البحرية إلى الموانى المصريه وفقا لبرنامج دخول القوافل البحرية إلى الطور ..

وفى عهد المماليك الشراكسة، ظهرت ميناء السويس كموقع تجارى، وعسكرى ويرجع ذلك إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذى أدى إلى سقوط الإمبراطورية ... إذ حاول المماليك محاربة البرتغال الذين حولوا طريق التجارة إلى المحيط الأطلسى وأنشأوا لهم مستعمرات فى الأراضى الهندية ولكن تدهور الإقتصاد المصرى والفوضى الداخلية الناتجة عن ذلك أدى إلى سقوط مصر فى أيدى الأتراك .

وقد وجه السلطان الغورى أهتمامه إلى طريق البر عبر سيناء، فعمر مراكز الحج وأنشأ الجوامع والإستراحات وحفر منابع للمياه فى هذا الطريق .

فكانت القافلة تخرج من القاهرة لتجد أول محطة لها فى «بركة الحاج» «حدائق القبة الآن»، ثم قلعة «عجرود» غربى السويس ... ثم «النواطير» فى بر سيناء، ثم «بئر القريض» ونقب «دبة البغلة» ونقب «العقبة» وقلعة «آيلة»، فإذا ما وصلت القافلة بر الحجاز على الشاطىء الشرقى، وجدت قلعة «المويلح» فبرج «ضياء الوجه» فقلعة ينبع وفى داخل بر الحجاز «رابغ» ....

وقد وضع الملك الظاهر تقاليد أرسال المحمل إلى مكة مقراً بذلك مسئولية مصر عن الأماكن المقدسة .. وظل هذا الإحتفال قائماً حتى ألغاء الإحتفال بالمحمل سنة ١٩٥٢ م .

ولم يبق فى نقب دبة البغلة من أثر سوى الكتابة الآتية منقوشة على صخرات : «بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله

ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزا ... رسم بقطع هذا الجبل المسمى « عراقيل البغلة ومهد طريق المسلمين الحجاج لبيت الله تعالى... وعمار مكة المكرمة والمدينة الشريفة والمناهل بعجرود ونخل وقطع الجهل وعقبة آيلة وعمار القلعة والآبار والأزلم والموشحة ومغارب نبط الفساق وطرق الحاج الشريفة مولانا المقام الشريف والإمام الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين الملك الأشرف أبو النصر قنصوة الغورى نصره الله نصراً عزيزاً » ...

وفى وادى القريص على بعد ستين كيلو متراً من نخل بئر كانت محطة للحجاج يبيتون فيها عند خروجهم من نخل وتعرف هذه البئر باسم بئر أبو محمد نسبة إلى الشيخ أبي محمد الجوهرى المدفون هناك ، وعلى درب الحج المصرى قرب مفرق الطريق إلى بئر التمد رجم كبير من الحجارة عرف برجم « الولى المفسود ».

ومن عادات البدو أن يرشقوا الرجم بالحجارة ويقولو : « أخا يا ملعون الوالدين ، وكانت مدينة نخل تسمى بطن نخل ، وذكرها أبو عبيد البكرى ، السلطان قنصوة الغورى على يد الأمير الكبير خير بك المعمار أحد المقدمين وبها أنشأ سنة ٩١٥ هـ ، وقد وسع الخان فى العصر التركى .

وإذا ما وصلت القافلة إلى منطقة العقبة الجبلية وجدت طريقاً مهده ملوك مصر فى الجبل المطل على مدينة العقبة ، وسمى الوادى الذى يصب قرب مصب « طابا » بالوادى المصرى .

والطريق الذى شيده السلاطين متعرج ومنحدر وبه خرائب بها بعض الأحجار مكتوب عليها ما يثبت أن الذى أمر برسم الطريق السلطان قانصوة الغورى ...

وفى العقبة نجد أيضاً آثار السلطان الغورى ومنها قلعة العقبة التى كتب على أحد جدرانها : « أمر بإنشائها السلطان قانصوة الغورى سلطان الإسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والملحدين محي العدل فى العالمين » .

وكانت قافلة الحج التى تعبر شبه الجزيرة خاضعة لإدارة محكمة على رأسها أمير يدعى : أمير الحج وقوة عسكرية لمنع السلب والنهب وقد بدأ هذا التنظيم السلطان بيبرس .

وكان بعض الحجاج يجمعون بين الفريضة الدينية والأعمال التجارية مما دفع المماليك إلى أخضاع هؤلاء للتفتيش الجمركى وتحصيل رسوم تصل إلى ١٠٪ . . .

وكان المماليك يدفعون لشرفاء مكة الأعطياء فى كل عام إعانة من مصر إلى الحجاز ، حتى أن السلطان قلاوون خصص إيراد بعض القرى المصرية والسورية لصالح شريف مكة ، هذا بخلاف ما كان يوزعه أمير الحج على الشريف وعلى كبار رجال الحجاز من المنح ولا يخفى على الباحث أن الحجاز كان خاضعاً — كما سبق أن قلنا — لحكم المماليك ...

وإذا علمنا أن عدد الحجيج الذين كانوا يعبرون سيناء يتراوح بين خمسين ألفا وثلاثمائة ألف لكان هذا دليلا على مقدار النشاط الذى كان يجرى على أرضها وعلى أهتمام السلاطين المماليك بشئونها . .

كان العلم المصرى — ولونه أصفر — يرفع على فوق المحمل ، وكانت العلاقات بين الحجاز ومصر مبنية على : اضطرار شرفاء مكة إلى المعونة المصرية ...

ومع ذلك كان فى استطاعتهم أثارة المتاعب أمام السيادة الخارجية والإبقاء على نوع من الإستقلال الذاتى . .

إلا أن السلطان قلاوون استطاع أن يوقع مع شريف مكة معاهدة تعهد فيها الأخير : بأن يعلق على الكعبة الكسوة الشرعية المرسلة من مصر فقط دون غيرها ، وألا يذكر فى الخطابة إلا أسم السلطان المصرى ، وأن يكون العلم المصرى فى طليعة الأعلام الأخرى .

وقد ساعد على ذلك أنتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وظلت الأوضاع على ذلك حتى جاء السلطان سليم إلى مصر ونقل مقر الخلافة إلى القسطنطينية ولقب نفسه بخليفة المسلمين .

المنصورة فى سبتمبر ١٩٨٣

د . أحمد الحفناوى
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

ملحق

نص الوثيقة التى يجب التحفظ بالنسبة لصحتها من الناحية التاريخية ، وفى نفس الوقت اعتبارها ذات أثر عميق لأنها احترمت على مر الأجيال وكأنها صحيحة :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

نسخة سجل العهـــد كتبه محمد بن عبد الله

رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى كافة النصارى

هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين بشيراً ونذيراً مؤتمناً على وديعة الله فى خلقه ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما . كتبه لأهل ملته ولجميع من ينتحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها ، قريبها وبعيدها ، فصيحها وعجميها، معروفها ومجهولها كتاباً جعله لهم عهداً ، فمن نكث العهد الذى فيه وخالفه إلى غيره، وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثاً ، لميثاقه ناقضاً ، وبدينه مستهزياً ، وللعنة مستوجباً . سلطاناً كان أم غيره من المسلمين المؤمنين .

وإن احتمى راهب أو سائح فى جبل أو داء أو مغارة أو عمدان أو سهل أو رمل أو ردئة أو بيعة ، فأنا أكون من ورايهم ذاب عنهم من كل عدة لها بنفسى وأعوانى وأهل ملتى وأتباعى لأنهم رعيتى وأهل ملتى وأنا أعزل عنهم الأذى فى المؤن التى يحمل أهل العهد فى القيام بالخارج إلا ماطابت به نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شىء من ذلك ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا يهدم بيت من بيوت كنايسهم وبيعهم ، ولا يدخل من مال كنايسهم فى بناء مسجد ، ولا فى منازل المسلمين ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وخلف

رسوله ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من بعد جزية ولا غرامة وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر وبحر فى المشرق والمغرب والشمال والجنوب، وهم فى ذمتى وميثاق وأمانى من كل مكروه، وكذلك من ينفرد بالعبادة فى الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعوه لا خراج ولا عشر، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم، ويعانوا عند إدراك الغلة بإطلاق قدح واحد من كل أردب برسم أفواههم، ولا يلزموا بخروج فى حرب ولا قيام بجزية ولا من أصحاب الخراج وذوى الأموال والعقارات والتجارات مما أكثر من اثنتى عشر درهم بالجمجمة فى كل عام، ولا يكلف أحد منهم شططاً، ولا يجادلوا إلا بالتى هى أحسن، نخفض لهم جناح الرحمة ونكف عنهم أدب المكروه حيثما كانوا وحيثما حلوا، وإن صارت النصرانية عند المسلمين فعليه يرضاها وتمكينها من الصلاة فى بيعها ولا تحيل بينها وبين هدى دينها، ومن خالف عهـــد الله واعتمد بالضد من ذلك، فقد عصى ميثاقه ورسوله، ويعاونوا على مرمة بيعهم وصوامعهم، ويكون ذلك معونة لهم على دينهم دفعاً لهم بالعهد ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح، بل المسلمون يذبون عنهم ولا يخالفون هذا العهد أبداً إلى حين تقوم الساعة وتنقضى الدنيا.

وشهد بهذا العهد الذى كتبه محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ لجميع النصارى والوفاء بجميع ماشرط لهم عليه إن أثبت اسمه وشهادته آخره.

على بن أبى طالب	أبو بكر بن أبى قحافة
عمر بن الخطاب	عثمان بن عفان
أبو الدرداء	أبو هريرة
عبد الله بن مسعود	العباس بن عبد المطلب
فضيل بن اعباس	الزبير بن العوام
طلحة بن عبد الله	سعد بن معاذ

سعد بن عبادة	ثابت بن نفيس
زيد بن ثابت	حنيفة بن عبية
هاشم بن عبية	معظم بن قرشى
حارث بن ثابت	عبد العظيم بن حسن
عبد الله بن عمرو بن العاص	عمار بن يأمن

« وكتب على بن أبى طالب بخطه فى مسجد النبى ﷺ بتاريخ الثالث من المحرم ثانى سنى الهجرة وأودعت نسخته فى خزانة السلطان وختم بخاتم النبى وهو مكتوب فى جلد أديم طايق فطوبى لمن عمل به وبشروطه ثم طوباه وهو عند الله من الراجين عفو ربه والسلام » .

« وفى الأصل المنقول منه هذه النسخة المتوجة بالنشان الشريف السلطانى ماصورته نقلت هذه النسخة من النسخة التى نقلت إلى النسخة المنقولة من النسخة الكاينة بخط أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالأمر الشريف السلطانى لازال نافذاً بعون المعين السبحانى ، ووضعت فى أيدى طايفة الرهبان القاطنين بجبل طور سيناء لكون النسخة المنقولة من النسخة الكاينة بخط أمير المؤمنين باقية وليكون سنداً على ما يشهد به المراسيم السلطانية والمربعات الخنكارية والسجلات التى فى أيدى الطايفة المذكورة » .

« تمت وسطرت هذه النسخة فى ثانى رجب الموجب ٩٦٨ » .

* * *

المصادر والمراجع

١ — إبراهيم أمين ، سيناء المصرية ص ١٣

٢ — نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث ص ١٥

٣ — ابن خرداذبة : (أبو القاسم عبيد الله ابن أحمد) ت حوالى ٣٠٠ هـ . « المسالك والممالك » مجلد ٦ ط لندن سنة ١٨٨٩ م .

— ابن حوقل (أبو القاسم محمد) ٣٦٧ هـ ، « كتاب صورة الأرض » لندن ١٩٣٨ م .

— المسعودى (مروج الذهب ومعدن الجوهر) ج ١ ص ١٨٨ ط ١٣٤٦ هـ .

— ابن إياس : (محمد بن أحمد) ٩٢٨ هـ ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور القاهرة ١٣١١ هـ .

— الادريسى : (أبو عبد الله محمد) ت ٥٦٠ هـ ، « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » . مختصر من كتاب « نزهة المشتاق » ليدن ١٨٦٦ م .

— ابن جبير ، الرحلة ط لندن .

— الدمشقى : شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى) ت ٧٢٧ هـ ، « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ط ١٩٢٣ م .

— ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى) ت ٦٢٦ هـ ، « معجم البلدان » ١٠ أجزاء ط ١٩٠٦ م .

٤ — إبراهيم أمين : المرجع السابق ص ١٨

٥ — أبو الفدا : (السلطان عماد الدين اسماعيل صاحب حماة) ت ٧٣٢ هـ ، « تقويم البلدان » باريس ١٨٤٠ م .

— ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) ت٨٠٨ هـ ، « العبر وديوان المبتدأ والخبر » القاهرة ٢٨٤ هـ .

٦ — أنظر المصادر والمراجع رقم ٣

٧ — أشعيا النبى ٢٧/١٢

٨ — نعوم شقير : المرجع السابق : ص ٨٧

٩ — إبراهيم أمين : نفس المرجع ص ٤٤

١٠ — أنظر إبراهيم أمين : نفس المرجع ص ١٠٩ ، نقلا عن الكيس مالون : اليهود فى مصر .

١١ — أحمد سوسه : (دكتور) ، « العرب واليهود فى التاريخ » ص ١٥٥

١٢ ، ١٣ إبراهيم أمين : نفس المرجع : ص ١٠٥

١٤ — ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى) ٢٥٧ هـ ، « فتح مصر وأخبارها » ص ١٧٦ لندن ١٩٢٠ م .

١٥ — أبو الفدا : المرجع السابق .

١٦ — سورة المائدة آية رقم ٨٢

١٧ — إبراهيم أمين : نفس المرجع : ص ١٦٦

* * *

روضة الشعر

فرحة وأمل

فرحة بزيارة السيد الأستاذ الدكتور محمد السعدي فرهود رئيس الجامعة فرع الجامعة فى دمنهور وبصحبته السيد الوزير محمد لبيب زمزم محافظ البحيرة ، والأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الكردى نائب رئيس الجامعة .

وأمل يراود كل من فى هذا الفرع بأن يتبنى هؤلاء المسؤلون الأفاضل بجهودهم البناءة إزالة كافة المعوقات لكى ينهض هذا الفرع ويحقق الهدف المنشود من إنشائه .

وفى غمار هذه الفرحة وظلال هذا الأمل كانت هذه القصيدة .

الزهر فاح شذاه فى بستانه
والطير قد غنى على أفنانه
وتعطرت أرض البحيرة وازدهت
والبشر عم ديارها فى آنه
لما خطا السعدى فرهود بها ومشى بها الكردى فى إيمانه
سطعت شموس السعد بين ربوعها
وأتى إليها الفرح فى ريعانه
يا موكب السعدى أنت سعادة
زفت إلينا الخير فى إبانه
بشرى دمنهور شرفت بموكب أرواحنا تاقت إلى إتيانه
كنا نمنى النفس باليوم الذى
يأتى لنا السعدى فى إخوانه

والبوم كرمنا بخير زيارة أهلا به قد حل فى بستانه

. . . .

يارائد الحصن الذى نشر الهدى
ونمت صروح العلم فى إيوانه
وتمزقت حجب الظلال بنوره
وتحطمت هام العدا بسنانه
ها نحن فرع نابت فى روضكم
ذاك الذى فتن القلوب ببيانه
فرع له فى كل عهد قصة
يحكى الزمان بها إلى ركبانه
أولاه أبناء البحيرة جهدهم
وحباه « زمزم » من كريم جنانه
بذل العظيم من الجهود مهيأ
سبل الحياة وحاطه بحنانه
حتى بدت أفنانه مخضرة
والكل جاء يشم من ريحانه
يحمى عميداه حماه بعزة
ويسابقان الدهر فى عمرانه
وشيوخه الأعلام بورك ذكرهم
نشروا ضياء العلم فى ديوانه
لكنه يحتاج منكم نظرة
ويريدكم أن تمسكوا بعنانه

حتى يرى دوحا يسر رواءه — تبدو القطوف تلوح فى أغصانه
فالفرع ما لم يرتو من أصله — أخذ الذبول يدب فى بنيانه
والطفل ما لم نرعه فى مهده — عصف الفناء موليا بكيانه

. . . .

يا رائد المعمور هذا فرعكم — أمل البحيرة قام فى شبانه
ترجوا بفوزهم دوام جهادها — بأئمة الإسلام فى ميدانه
كم أنجبت أرض البحيرة للورى — من أزهر ساحر ببيانه
منهم حكيم المسلمين محمد — من حرر التفكير من أوثانه
وكذاك شلتوت مفكر عصره — وكذا بهى فيلسوف زمانه
وأئمة سار الزمان بذكرهم — فى ساحة المعمور من فرسانه
حملوا شريعة ربهم واستمسكوا — بهداية الرحمن فى قرآنه
صانوا حمى الفصحى وأعلوا ذكرها
وتحمسوا للشعر فى أوزانه
واليوم جئتم بيننا كى تبعثوا — مجدا عريقا حان وقت أذانه
أبناؤكم يتطلعون لعهدكم — فيرون أن المجد فى عنوانه
يستبشرون بجهدكم ونشاطكم — ويقدمون الشكر فى ألحانه
آما لهم فيكم عظام كى يروا — أمل البحيرة شب فى ريعانه
أعطاكم المولى جليل نعيمه — وحباكم بالخير من رضوانه

. . . .

شعر الأستاذ
الشحات محمد عبد الرحمن
المدرس المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلمة الكلية

أيها القارىء الكريم :

من حقك على كلية اللغة العربية بدمنهور أن تعرف الظروف التى نشأت فيها وكذلك الرسالة التى أنشئت من أجلها وتعمل فى سبيل أدائها وأن تسأل عن الخطوات التى قطعتها فى ذلك الطريق ومبلغ النتائج التى حصلت عليها بعد سنوات قليلة من عمرها المديد إن شاء الله .

ومن واجب أسرة مجلتها أن تمدك بوسائل هذه المعرفة وأن تجيبك أو تمهد لك سبل الإجابة على ما يمر فى خلدك من خواطر أو ما يدور فى نفسك من أسئلة .

أما الظروف التى نشأت فيها الكلية فيمكن تلخيصها فيما يأتى :

فكر المخلصون من أبناء محافظة البحيرة وعلى رأسهم السيد المحافظ الأستاذ / محمد لبيب زمزم ، فى خدمة دينهم ولغتهم وأمتهم بإنشاء فرع لتلك الجامعة العتيدة « جامعة الأزهر » فى هذا الإقليم الكبير من أقاليم مصرنا العزيزة ، فقدموا اقتراحاً بهذا إلى الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وإلى رئيس الجامعة ، ووعدوا تيسير وتسهيل كل ما يقف أمام المشروع من عقبات ، وكانت موافقة مجلس الجامعة على هذا خير مشجع لمواصلة السير فى هذا الطريق .

وقد تضمنت هذه الموافقة إنشاء كليتين إحداهما للغة العربية والثانية للشريعة الإسلامية والقانون ، وصدرت بذلك القرارات الوزارية المطلوبة ، وجاء دور التنفيذ فقدمت المحافظة مشكورة أحد مبانى مدارسها الكبيرة ليكون مقراً مؤقتاً للكليتين ، وشغلت كليتنا الناهضة الجناح الأيسر من

هذا المبنى ، وعاونت المحافظة أيضاً بتقديم الآثاث اللازم وبعض المتطلبات الأخرى ، وأصدر رئيس الجامعة قراراً بندب عميد للكلية والإعلان عن وظائف هيئة التدريس والوظائف المعاونة والعاملين ، واستمر الإعداد لإفتتاح الكلية عاماً كاملا تم فيه تعيين عدد من أعضاء هيئة التدريس والمدرسين المساعدين والمعيدين ، وعدد من أعضاء الجهاز الإدارى اللازم ، ومن العمال ، وكان ذلك خلال العام الجامعى ١٩٨١/١٩٨٢م ، وفى أوائل العام الجامعى ١٩٨٢/١٩٨٣م ، استقبلت الكلية طلاب السنة الأولى بها وكان عددهم يزيد عن الخمسمائة وقد أقيم حفل كبير بهذه المناسبة .

وهكذا خرجت إلى الوجود وليد جهود مضنية هذه المنارة اللغوية الإسلامية فى شمال مصر وفى غربها ترسل أضواءها بإذن الله قريباً إلى غرب العالم الإسلامى كله إذا صدقت النيات واستمر العمل بإخلاص ووفاء .

وأما عن الرسالة التى أنشئت من أجلها فهى :

العمل فى إطار الرسالة الكبرى للأزهر الشريف — على تعليم اللغة العربية ودراستها ونشر الوعى اللغوى والدينى فى هذا الإقليم وفى كل أقاليم مصر والعالم العربى والإسلامى والسهر على إعداد مايلزم من مدرسى اللغة العربية والدين الإسلامى ومن الباحثين فيهما وتكوين الدعاة اللغويين والإسلاميين وغيرهم من العاملين فى الميادين الأدبية واللغوية والمشتغلين بفنون الكلام .

وأما عن الخطوات التى قطعتها فى ذلك الطريق .. فإننا نحيلك إلى ماسبق أن قلناه فى هذه الكلمة ، فهى أصدق سجل بريك هذا ... ترى من خلاله حالة الكلية يوم نشأت فكرة وحالتها يوم برزت إلى الوجود ، ثم المراحل الصعبة والتجارب القاسية التى مرت بها حتى وصلت إلى وضعها الراهن . وقد حرصت الكلية منذ نشأتها على :

١ — وضع أسس سليمة لبناء رابطة قوية بين الكلية والأساتذة لكي يتهيأ للجانبين ميدان من الحياة الجامعية الصحيحة ينهض كل واحد فيه بدوره فتبرز الملكات وتستغل الإمكانات .

٢ — عقد صلات من الألفة والإخاء بين أعضائها في داخل الكلية وبين جميع من يعنيهم أمر النهوض باللغة العربية خارج الكلية لكي تتضافر الجهود وتتعاون الهمم في خدمة لغتنا العريقة وإحياء تراثنا المجيد والتعريف بما لها من مكانة مرموقة بين سائر اللغات .

ونأمل أن يتحقق بمجلة هذه الكلية — والعدد الأول هذا بين يديك عزيزي القارىء — جو من التبادل الثقافي بين أسرتها وكل الهيئات الأدبية الأخرى .

ومع ذلك فالكلية لا تزعم لنفسها الوصول إلى درجة الكمال وإنما هي لا تزال تنشده .

ومن الحق أن نسجل هنا أن من عوامل النجاح في النهوض بالكلية الإخلاص والوفاء ونكران الذات ، وقد تجلت هذه الصفات في أسرة الكلية من أعضاء هيئة التدريس والمدرسين المساعدين والمعيدين وجميع العاملين .

عزيزي القارىء :

ما تقدم فهو لك ولكن عليك الآن أن تقرأ هذا العدد في يقظة وعلى مهل وأن تكون نظرتك إليه شاملة ليكون حكمك عليه مخلصاً ونقدك له نقداً بناءاً ، والسلام عليك ، وإلى اللقاء في العدد القادم بإذن الله ...

دكتور / عبد الله ربيع محمود   دكتور / أحمد الحفناوي

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٤/٦١٩٦

